الموت في البندقية

تأليف : توماس مان

تعريب وتقديم:
كميل داغر

المؤسسة العربية للدراسات والنشر



ألموت في البندقية

ألموت في البندقية

توماس مان

تعريب وتقديم
كميل قيصر داغر

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة - ص.ب: ١١/٥٤٦٠
بناية برج شهاب - تلة الخياط - ص.ب: ١٩٥١١٩
برقيا: موكيالي - بيروت

توطئة

حين قررت في ربيع ١٩٧٥ أن أنقل إلى العربية مجموعة الدراسات التي كتبها جورج لوكاش عن الروائي الالماني العظيم « توماس مان » ، كان اسم على تلك الدرجة من الضخامة والأهمية غريباً جداً عن القارىء العربي الذي لم يتسن له أن يقرأ شيئاً من نتاجه أو أن يعرف عنه ، رغم أن مقامه في الرواية الالمانية ـ والعالمية ـ يضارع مقام عمالقة القصة في العالم ، تولستوي او دوستويفسكي في روسيا ، بالزاك او فلوبير في فرنسا . . ناهيك عن اسماء اقل بريقاً بكثير تمكنت من شق طريقها إلى المكتبة العربية .

إلا أنها كانت مفارقة حقاً أن يجري البدء بالتعريف بالروائي الالماني عبر دراسات نقدية عنه ، بدل نقل رواياته

مباشرة واعماله الادبية الأخرى . وإنه لمثير أكثر أن يكون سبق صدور ترجمة مقالات لوكاش عنه* ، نشر تعريب لبحث نقدي يتناول فيه اسحق دويتشر تلك المقالات بالذات** .

خروجاً من تلك المفارقة التي أسهمت فيها شخصياً ، لم أجد بداً من الإسراع في نقل احد اعماله القصصية المعبرة والمرهفة ، عنيت قصة « الموت في البندقية » التي قيض للعديد من هواة السينما الفنية في لبنان ان يروها منقولة إلى الشاشة في فترة سابقة من هذا العام . وبالطبع فان القصة على جانب من الغنى والكثافة أعظم بكثير مما هي الحال مع الفيلم . وهذا ما يجعل قراءتها عملاً لا غنى عنه .

ولد توماس مان عام ١٨٧٦ لعائلة بورجوازية كانت تقيم في لوبك منذ بدء القرن التاسع عشر . أما والدته فكانت برازيلية ذات دم مختلط . قضى طفولته في البيت القديم الذي أبرزت رواية آل بودنبروك (١٩٠١) صورة دقيقة عنه ، وظهرت ملامحه في روايات وأقاصيص أخرى من مثل الجبل

* صدرت الترجمة المذكورة في تشرين الاول ١٩٧٧ عن « المؤسسة العربية للدراسات والنشر » ، بيروت

** نشرت ترجمة البحث المذكور في مجلة « دراسات عربية » في الصيف الماضي ١٩٧٧ .

السحري وتونيوكروجر وتريستان والسيد الصغير فريدمان . إنتمى لأوليغارشية تحب العمل والمال ، لكن كذلك الترف والرفاه . إلا أنه استطاع أن يلتقط بسرعة نقاط ضعفها واختلال توازنها ، رغم ما يبدو عليها من تماسك وواقعية ، وقد رسم صورتها على هذه الخلفية بالذات ، فإذا نحن امام مشاهد انحطاطها ودمارها بدل صعودها وعظمتها . ولعل الجذور العميقة لتلك الصورة تمتد في تجربة مان بالذات ، اذ فقد والده وهو بعد طري العود ، وكان على والدته أن تصفي اعمال العائلة في لوبك وتبيع البيت ، منتقلة واولادها الخمسة إلى ميونيخ ، وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره .

هناك اشتغل في شركة تأمين ، إلا أنه سرعان ما ترك الاعمال المكتبية بعد ان نشرت اول أقصوصة له ، ليتجه نحو دراسة الفن والأدب . وقد انصرف نهائيا ، بعد عام قضاه في روما ، إلى النشاط الادبي .

لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره حين نشرت له روايته الكبيرة الأولى ، آل بودنبروك ، (١٩٠١) . أما عمله الضخم الثاني ، الجبل السحري ، فظهر عام ١٩٢٤ ، فيما

صدر له في الفترة ما بين التاريخين العديد من الأعمال المرموقة ، من مثل صاحب السمو الملكي (١٩٠٩) ، والموت في البندقية (١٩١١) ، وتأملات إنسان غريب عن عالم السياسة (١٩١٨) .

عام ١٩٢٦ ، طلب منه فنان ميونيخي كتابة مقدمة لألبوم رسوم مخصصة ليوسف ، الشخصية المشهورة في التوراة ، فكان ذلك منطلقاً لرباعيته الضخمة يوسف وإخوته ، التي ظهر اول جزء منها عام ١٩٢٢ . في ذلك العام وصل هتلر إلى السلطة . كان ذلك إيذاناً بانتصار النازية في المانية التي غادرها مان إلى ضواحي زوريخ في سويسرا .

هاجر مان إلى الولايات المتحدة قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وشغل طيلة سنوات منصب استاذ في جامعة برينستون . وقد خاض من منفاه الاختياري ذاك معركته ضد النازية ، أكان عبر الصحافة او عبر الاذاعة ، متوجها على وجه الخصوص إلى الشعب الالماني الذي خضع طويلاً للتنويم المغناطيسي الجماعي الذي اضطلع به الوحش النازي ، وإذا كان لوكاش قد اعتبر مان نموذجاً « أقصى لأولئك الكتاب الناجمة

عظمتهم عن كونهم « مرايا للعالم » ، فلقد كان أدبه في تلك الفترة مرآة للعالم المتمزق القلق والمرعوب حيال صعود الظاهرة تلك ، في العديد من رواياته ، ولا سيما ماريو والساحر ورائعته الدكتور فوستوس .

إلا أن مان الأنسي الديمقراطي ، سرعان ما لاحظ ان الرجعية الاميركية تسن من جانبها أسنانها بانتظار أن تحين ساعة الانقضاض على حليفها المؤقت ، الاتحاد السوفياتي . وقد اعلن لصحافي سويسري فيما بعد ان الحرب لم تكن القت اوزارها حين بدأ الناس يتحدثون عن شبح حرب جديدة يلوح في الأفق .

ضمن هذا الجو ، غادر اميركا الى سويسرا حيث تيسر له ان يناضل عن كثب لإعادة توحيد المانيا . ألقى محاضرات في الالمانيتين بمناسبة يوبيل غوته عام ١٩٤٩ ، كما بمناسبة يوبيل شيللر في العام ذاته . وهو لم يقبل بتصوير فيلم مقتبس من رواية آل بودنبروك إلا شريطة أن تساهم في ذلك مجموعات سينمائية المانية شرقية وغربية بصورة مشتركة . وقد كانت سنواته الاخيرة عملاً دائباً لصالح السلام .

إلا أن حياة مان وأدبه لم يسيرا في خط نمـو واحـد ، بل خضعا لانعطافات حادة . فهو لم ينته إلى قناعاته التي تبلورت على وجه الخصوص إبان مقاومته للانحطـاط المأسـاوي الـذي عرفته البورجوازية مع صعود النازية ، إلا بعد أن مر في فترة اولى بنزعة جرمانية هي ابعد ما تكون عن مفاهيم الديمقراطية والتقدم. ولا ننسينّ في هذا المجال تأثره العميق باسمين طالما اعتبر الهتلريون انفسهـم امتـدادا لفـكرهما ، عنينا من جهـة شوبنهاور الذي قرأه مان في العشرين من عمره وهو بعد طالب في ميونيخ ، ونيتشه من جهة أخرى . أخذ عن الأول تشاؤماً ساحقاً يرى الحياة قساوة والعالم شراً ، تشاؤماً له طعم الموت والصليب والقبر ، واستخلص منـه توجهـه إلى الاستنـكافية السياسية والالتحاق بالعسكرية المالكة . أمـا نيتشه فأثـر فيه بسوداويته الساحرة ونزعته الثقافية ونفاذه السيكولوجي ، بفن رؤية الإنسان كما هو في حيلته ودناءتـه ، وبالشجاعـة التـي ترافق ذلك . كما غزاه الموسيقي الكبير فاغنر بسحر موسيقـاه القوية ذات الإلهام الشوبنهاوري ، وهو سحر علمه نيتشه أن يميز فيه العناصر المضطربة والاثارة العـاطفية المسرحية والـرأي القبلي الزخرفي الباذخ .

تلقي التأثيرات المشار اليها ضوءاً على اتجاه لديه معاد للديمقراطية لازمه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، اقترن بالتضامن المتحمس مع « قيم » من مثل الامبراطورية ، الجيش ، السلطة ، وبمعارضة مستمرة « للحضارة » اللاتينية «بالثقافة» الجرمانية . وهو قد دلل في الحرب تلك على « نزعة شوفينية عسكرية مبتذلة وعلى عداء صلف ومتعجرف تجاه كل ما كان يطالب به اليسار والقوى الديمقراطية الالمانية » حسب ما يقول اسحق دويتشر .

إلا ان الحرب ونتائجها ، لا سيما الهزيمة المنكرة التي لحقت بالعسكرية الالمانية وبالمطامع الاستعمارية لدى بورجوازية بلاده ، وما تبع ذلك من تفجرات ثورية ، مع ما صاحبها من إجهاض وقمع ، كل ذلك كان كافياً لاحداث انعطافة عميقة في منحاه الفكري والحياتي . فهو تحول نهائياً الى نزعة ديمقراطية ليبرالية ساعدته في البدء بخوض معركته في وجه قوى الظلام والبربرية قبل ان يتمكن هتلر من انتزاع السلطة بسنوات . وإن في الصراع بين الديمقراطي الأنسي سيتمبريني وتلميذ اليسوعيين نافطا الحامل لاتجاه كاثوليكي يستبق الفاشية في رواية الجبل السحري (١٩٢٤) صورة اولى عن تلك المعركة .

وقد تطور ذلك المنحى وتبلور اكثر مع انتقال الفاشية من مجرد اتجاه او تيار متنام إلى التعبير عن نفسها على ارض السلطة التي كانت استولت عليها في إيطاليا مع صعود موسوليني ، ثم فعلت الشيء نفسه في المانيا عام ١٩٣٣ . مذ ذاك اصبح شغل مان الشاغل خوض المعركة ضد انفجار الأهواء الأكثر بربرية وقد اطلقها من القمقم صعود القوى الاجتماعية التي اعتمد عليها هتلر في صعوده كما في احتفاظه بالسلطة . كان ذلك بالكتابة والنداءات المباشرة ، لكن كذلك عبر القصة والاقصوصة . وإن ادب كهولة وشيخوخة مان مطبوع كلياً بصراعه ضد قوى التوحيش والبربرة التي كانت تعمل على تحويل العالم اجمع إلى صورتها ومثالها . ألا يمكن ان نرى في المعاهدة مع الشيطان التي عقدها بطل رواية الدكتور فوستوس ، الموسيقي ادريان ليفركوهن نموذجاً للحلف الشيطاني الذي أقامته البورجوازية الاوروبية في فترة انحطاطها مع النزعات الأكثر سواداً وإجراماً ودناءة لدى الكائن والمجموعات الانسانية ؟ أو ليس « السيد من روما » الذي يحاول عبثاً أن يقاوم التنويم المغناطيسي في اقصوصة ماريو والساحر صورة عن المحاولات اليائسة لمواجهة الصعود

الفاشي ، لكن دون جدوى ، لكون تلك المحاولات بقيت في مواقع الدفاع الصرف والسلبية المجردة ، ولم تنتقل بقوة الى معارضة الظلام والشر المتجسدين في وقائع بقوة خير ذات مضمون ايجابي ؟

لقد رأى مان في الواقع ، منذ عام ١٩١٨ كيف ان بعض شرائح الديمقراطية البورجوازية تبدو ناضجة لهيمنة الحثالة ، « مستعدة للتحالف معها لإطالة امتيازاتها » . وهو رغم انحيازه العميق للبورجوازية ، رغم التصاقه الجذري بطبقته ، حتى وهو يعارضها ، كان يستطيع ان يستكشف بإخلاص حدة المأزق الذي آلت إليه ، ولا يرى مخرجاً واضحاً منه ، بحيث توصل جورج لوكاش في دراساته عنه إلى استنتاجات جازمة حول توجهات اشتراكية لدى الروائي الالماني العظيم الذي كان حسب تعبيره « ضمير البورجوازية الالمانية » . إن الموسيقي ادريان ليفركوهن ، بطل رواية الدكتور فوستوس يطمح للخروج بالفن من « عزلته الرائعة التي كانت ثمرة لتحرر الثقافة ، لارتقاء الثقافة إلى دور بديل للدين ، ولاحتكاكاته العصرية بنخبة مثقفة تدعى « الجمهور »لن يكون لها وجود عما قليل ،لا بل لم تعد موجودة ، حتى ان الفن

سيصبح وحيداً كلياً في مدى قصير ، وحيداً إلى درجة الزوال إلا إذا وجد الطريق الذي يقود إلى « الشعب » ، أي . . . إلى الانسان » .

ورغم ان كلمة الشعب تأتي لديه بين مزدوجين ، كدلالة على عدم خروجه الكلي من تأثيرات طبقته ، إلا ان شعوره بمأزق تلك الطبقة كان عظيماً ، وعظيماً جداً ، وهذا ما يلحظه ليفركوهن بالذات حين يرى ان الكثير من الناس « بدل أن يهتموا بتعقل بما ينقص على الأرض ، لكي تصبح شروط الحياة أفضل ، وان يتدبروا الامور بهدوء لكي يستتب بين الناس نظام معد بحيث يعطي من جديد مبرراً لحياة النتاج الجميل ، ويعيد إليه مكانته بشرف ، فإن الإنسان يهرب تلقائياً ويتيه في النشوة الجهنمية . يفقد فيها خلاصه وينتهي في القاذورة » .

وهو حين يحاول استشراف خلاص من ذلك المأزق المؤدي بالانسان إلى القاذورة ، لا يجد ذلك إلا في تخطي البورجوازية لذاتها كطبقة نحو التعلق بأهداب مستقبل تعده طبقة أخرى . لقد كتب في بحثه « غوته ممثل العصر البورجوازي » :

« إن الروح البورجوازية في النظريات الطوباوية التقنية والعقلانية تصب في الشمولية ، تصب إذا اردنا استعمال التعبير بمعنى واسع وغير عقدي في الشيوعية . . إن البورجوازي ضائع ويفقد التماس مع العالم الجديد الذي في قمة الحمل إذا لم يحزم أمره على الانفصال عن السهولات الاجرامية والايديولوجية المعادية للحياة التي ما تزال تسيطر عليه ، وعلى الانحياز بجرأة إلى المستقبل . . إن العالم الجديد ، العالم الاجتماعي ، العالم المنظم ، المركز والمخطط الذي سوف تتحرر فيه الانسانية من الآلام اللاإنسانية غير النافعة والتي تجرح حس شرف العقل ، هذا العالم سوف يجيء . . سوف يجيء لأنه يلزم ان يخلق نظام خارجي وعقلاني ، يتناسب مع المستوى الذي بلغته الروح الانسانية ، او في أسوأ الحالات ، ان ينشأ على قاعدة انقلاب عنيف ، من اجل ان تستطيع قيم الروح ان تحصل آنذاك من جديد على حق الحياة وعلى خلوص النية على المستوى الانساني » .

إلا انه إذا كان لوكاش جازماً في اعتباره ان مان البورجوازي حتى العظم قد اختار الاشتراكية حلاً وحيداً

لتلافي السقوط في البربرية ، فلم يكن اسحق دويتشر على تلك الدرجة من الايجابية تجاهه . فهو رأى ان رفضه للرايخ الثالث « إنما كان ينم بالأحرى (وفقط) عن نفور البورجوازي النبيل والمثقف من الغوغاء والبروليتاريا الرثة التـي انفلتـت من كل عقال في ظل الصليب المعقـوف » . وإذا عدنـا في الواقع الى روايته الدكتور فوستوس ، فنحن نجد بالفعل انه تنفتح أمامه رئاية الاشتراكية ، لكن ليس كمطمـح واضـح وصريح ، بل كخلاص من المأزق الرهيب الذي وصلت إليه البورجوازية في اقصى درجـات انحطاطهـا مع انتصـار النازيـة . يقــول سيرنيوس زايتبلوم ، صديق ليفركوهن وكاتب سيرته : « تترتب افـكاري حول سيطـرة الجماهـير بصـورة جديدة ، وأنـا البورجوازي الالماني اخضع لتجربة اعتبار هيمنة الطبقة الدنيا كحالة مثالية عندما اقوم بالمقارنة الممكنة الآن مع هيمنة حثالـة المجتمع » .

لكنه حتى وهو يضع نصب عينيه هذا الاحتمال المنقـذ لا يذهب به لأقصى نهاياتـه ، بل يقف موقفـاً توفيقياً يطمـح إلى التوحيد بين « التصور المحافظ للحضـارة والأفـكار الاجتماعية

الثورية ، بين اليونان وموسكو . . » وهذا يتطابق في نهاية المطاف مع ما يسمى اليوم بـ « الشيوعية الاوروبية » إجمالاً ، كتعبير عن التفاعل بين المأزق المتجدد بحدة متعاظمة للبورجوازية الاوروبية ، والانحطاط الفعلي للفكر والنظرية الثوريين على يدي شريحة حزبية بيرقراطية متباعدة باستمرار عن المصالح التاريخية « للطبقة الدنيا » .

« الموت في البندقية » في نتاج مان

اين تقع اقصوصة « الموت في البندقية » من مجمل هذا السياق ؟

كتب مان هذا العمل القصصي المرهف في مرحلة اولى من حياته الأدبية ، وبالتحديد عام ١٩١١ ، في وقت كان لم يحصل بعد الانعطاف في مساره الفكري والانساني ، نحو الديمقراطية والتقدم . إلا ان بالامكان القول إن الملامح العامة لأدب مان تجد فيه ارضية خصبة وكثيفة . إننا واجدون في هذا النتاج التشاؤم العميق الذي ورثه مان عن شوبنهاور مقترناً بطغيان الموت وهيبة العدم ، كما نقع على نفاذ البصر وبعد

الرؤ يا والرهافة السيكولوجية الخارقة التي كان توماس مان يعجب بها لدى نيتشه ، وهي المفاهيم الاربعة الاساسية التي حددت الروح الالمانية عبر الأدب خلال قرون ، عنينا الثقافة والموسيقى والبروتستانتية وحس الواجب

إن الشخصية المركزية في الموت في البندقية روائي كهل ذو شهرة اوروبية . لكونه بالضبط يتمتع بحساسية فنان وتخطى منتصف العمر فسيكون عرضة لتلك الانحرافات المفاجئة وذلك الهذيان المؤدي الى الموت . إن الانبهار المميت الذي يمكن ان يمارسه الجمال الجسدي هو الموضوع الذي يعالجه مان في هذه الاقصوصة . « هكذا الجمال هو الطريق التي تقود الانسان الحساس الى الروح ، فقط الطريق ، وسيلة وحسب ، يا صغيري فيدروس » . إلا ان الجمال هنا ، يقود إلى الاضطراب الرهيب في الروح ، إلى فقدان التوازن ، إلى الموت . إنه مبدأ انعطافات عميقة في الكائن الانساني الذي لا يعود يعرف نفسه ، ولا يعود يتذكر ماضيه ، الا ليجحد ذلك الماضي ، بما فيه ذاته السابقة وعنفوانها ومقامها ، او ما يسميه لوكاش مبدأ الهيبة . إن غوستاف آشنباخ الذي شعر باشمئزاز عميق من الشيخ المتصابي في بداية سفرته الى البندقية ، لا يعتم

ان يسقط في « الخطيئة » ذاتها التي كانت أثارت قرفه في السابق . إن حبه لتادزيو المراهق الجميل ، هذا الحب المفاجيء ، الحب الصاعق الذي يرافق مشهد الجمال الساحق ، يدفعه في نهاية المطاف إلى انواع التبرج والتزين التي يستعيد بها بعض مظاهر الشباب المزيفة التي طالما استفزته ونفرته . إن الجمال هنا هو الطريق إلى الهاوية ، وآشنباخ يسير إليها دون مرد . « ذلك ان الجمال ، لاحظ جيداً يا فيدروس ، الجمال وحده الهي ومرئي في آن معاً ، وهكذا فبه نتوجه نحو المحسوس . به ينخرط الفنان يا فيدروس الصغير في دروب الروح . . . ذلك انه ينبغي ان تعرف اننا ، نحن الشعراء ، لا يمكننا ان نسلك طريق الجمال دون ان ينضم الينا ايروس ويأخذ دفة القيادة . . إننا نجحد الهاوية تلقائياً لنعز أنفسنا ، لكن اينما استدرنا فهي تجذبنا اليها » . إن الماضي الذي طالما كبح فيه المرء كل جماح وسيطر عليه باسم جملة من المبررات والروادع يبلغ لحظة ينفلت معها من كل عقال ، وتنفجر عندها في النفس كافة النزعات المكبوتة والمضغوطة في زوبعة مدمرة مميتة . إن الحلم هنا والرؤيا يظهران هذا الماضي وقد خرج من قشرته البركانية . لقد تراءت لآشنباخ في عز اليقظة تلك الساعة

الرملية القديمة « تلك الآلة الصغيرة سريعة العطب جداً والهامة جداً ، رآها فجأة من جديد كما لو كانت أمامه . كان الرمل المائل للون الصدأ يجري بصمت عبر ثقب الزجاجة الضيق ، وفيما كان يستنفد في التجويف العلوي ، تشكلت هناك زوبعة صغيرة جامحة » .

ولقد رأى حلماً ، « حلماً رهيباً ـ إذا أمكن إطلاق تسميته الحلم على دراما الجسد والروح تلك التي حدثت دون شك فيما هو نائم نوماً عميقاً ، متمثلة بأشكال محسوسة وبالاستقلال الكلي عنه ، لكن كذلك دون ان يعي انه هو نفسه خارج الاحداث . على العكس من ذلك كانت روحه بالذات مسرحها ، وكانت تلك الاحداث وهي تهاجمه من الخارج تحطم مقاومته ، وتغتصب قوى نفسه العميقة ، تزعزع كل شيء وتترك وجوده ، البناء المعنوي لحياته بأكملها مدمراً معدوماً » .

إن دراما الجسد والروح تلك ستنتهي بدمار آشنباخ وموته . إلا ان الفنان المنتهي هذه النهاية المأساوية هنا بعد انفلات طاقاته المكبوتة وقوى نفسه الجامحة ليس كائناً فرداً ، إنه المانيا التي ستنفلت فيها قوى جامحة على المستوى الجماعي فيما

بعد ، فيما تعيش البورجوازية مرحلة انحطاطها ، تماما كما تنبأ ماركس قبل ذلك بعشرات السنين حين قال : « سوف تجد المانيا نفسها هكذا ذات صباح على مستوى الانحدار الاوروبي قبل ان تكون عرفت يوماً مستوى التحرر الاوروبي » .

كميل قيصر داغر

١

بعد ظهر يوم ربيعي من عام **١٩ ، بدا طيلة أشهر يهدد سلام أوروبا إلى درجة عالية من الخطورة ، كان غوستاف آشنباخ أو آل آشنباخ ـ الذي غدا من حقه إضافة تعبير النبالة هذا مذ بلغ الخمسين من عمره ـ قد غادر شقته في برينزر يجنتنستراسي إلى ميونيخ للقيام بنزهة طويلة لوحده . إن الكاتب الذي أرهقته صعوبات عمل صباحي كان عليه أن يبذل له بالضبط انتباهاً دائماً ، إحترازاً وعناية لا متناهية ، إرادة لجوجاً وصارمة ، لم يستطع حتى بعد الغداء أن يضع حداً في ذاته لانطلاقة الأوالية الخلاقة ، تلك الـ animi continuus* motus التي حدد بها شيشرون البلاغة ، ولم يعرف في قيلولته الرقاد مجدد القوى الذي أصبح ضرورة يومية بالنسبة إليه ، بعد أن غدا الإنهاك يأخذ بتلابيبه أسرع فأسرع . لذا فقد سعى بعد

* باللاتينية في النص (المترجم)

تناول الشاي مباشرة إلى الهواء الطلق ، على أمل ان تعيد اليه النزهة حيويته وتعود عليه بأمسية عمل نشيطة .

كان ذلك في مطلع أيار ، وقد أعقبت أسابيع بردٍمشبع بالرطوبة مفاجأةُ صيفٍ كاذب . كانت الحديقة الانكليزية Garten Englischer ، وإن لم تتزين بعد بغير أوراق ندية ، تستروح العاصفة كما في شهر آب ، وقد طالعت آشنباخ في ضاحية المدينة الغاصة بالسيارات والمشاة . راقب آشنباخ لفترة ، في مطعم اوميستر الذي كانت تؤدي به إليه معابر أقل فأقل ارتياداً ، حركة الناس فوق الرصيف الذي توقفت على امتداده بعض العربات . . عند غروب الشمس ، كان قد خرج من المنتزه وعاد عبر الريف . ولكونه شعر بالانهاك وبأن العاصفة وشيكة ما فوق فوهرينغ ، فقد انتظر في مقبرة الشمال الحافلة الكهربائية التي تعود به مباشرة إلى المدينة .

حدث أنه لم يكن ثمة أحد في المحطة أو على مقربة منها . لا مركبة واحدة على قارعة طريق فوهرينغ أو في شارع أونجر اللذين كان بلاطهما وخطوطهما الحديدية اللامعة تضيع في السكينة . خلف حظائر متعهدي النُّصب التذكارية ، كانت

الصلبان والشواهد والاضرحة تؤلف ما يشبه مقبرة أخرى ، إلا انها غير مسكونة . أما في مقابلها ، فكان المصلىً الذي يباركون فيه الموتى ، يخلد إلى الصمت في انعكاس أشعة النهار عند المغيب . على واجهته التي تزينها صلبان إغريقية ورسوم كهنوتية بألوان صافية ، كانت تنتظم بأحرف من نضار كتابات تناسقية ، كلمات من الكتاب المقدس عن الحياة الأخرى . ـ « سيد خلون بيت الله » ـ « فليستمدوا النور الأبدي » ـ ولقد وجد آشنباخ إبان دقائق الانتظار تلك تسلية رصينة في فك الرموز . كان نظره يضيع فيها ، ويستسلم فكره لصوفيتها الشفافة ، حين انتشلته من أحلام يقظته ، وطبعت أفكاره بمجرى مختلف تماماً ، رؤية رجل غريب تحت الرواق ، فوق بهيمتي سفر الرؤيا اللتين تحرسان درج المدخل .

لم يدر آشنباخ إذا كان طلع من داخل المصلىً عبر الباب البرونزي أو إذا كان أتى من الخارج فتسلق الدرجات دون أن يلفت ذلك انتباهه . كان يميل بالأحرى إلى الاحتمال الاول ، دون ان يتوقف عنده ملياً . كان ذلك الرجل ذو القامة المعتدلة ، الهزيل وغير الملتحي ، صاحب الأنف الأفطس للغاية ، ينتمي إلى المثال الأصهب من الرجال ، له منه السحنة

الحليبية والبشرة المبقعة . بديهي انه لم يكن بافاريا : كانت قبعته مانيلية على الأقل ، ذات أطراف فضفاضة مستقيمة ، تضفي عليه طابعاً أجنبياً ، مسحة من يأتي من بلدان غريبة . بالمقابل ، كان الجراب الجبلي المتدلي من كتفيه هو الذي يُرى بالضبط في بافيير . كانت بزة الرياضة المائلة إلى الاصفرار التي يرتديها تبدو من اللودن* . يمسك بيساره المستندة إلى ثنية فخذه معطفاً رمادياً للوقاية من المطر ، فيما يحمل بيده اليمنى عصاً محددة مغروزة في الأرض ، يستند إلى مقبضها بوركه مصلباً قدميه الواحدة على الأخرى . كان رأسه المنتصب يُبرز من القميص المفتوح عنقاً طويلاً وجامداً تنفر فيه جوزة العنق . كان يتحرى الأفق بعينين فاقدتين اللون ، تظللهما أهداب صهباء تعترضهما عمودياً ثنيتان ماضيتان تتناسبان بصورة مدهشة مع الأنف المرفوع . هكذا ـ وربما لم يكن يبدو متشامخاً إلى ذلك الحد إلا لأنه كان واقفاً في أعلى الدرجات ـ كان في وقفته شيء ما متصلف ، متسلط ، جسور ، لا بل فتاك . ذلك أنه ، سواء قطب وجهه لأن الشمس الغاربة كانت تبهره ، أو كان في الأمر تشويه دائم للملامح ، فإن شفتيه اللتين كانتا

* نسيج قطني سميك (م) .

تبدوان جد قصيرتين ، كانتا تفتران كليا عن أسنان طويلة بيضاء يبرز صفّاها بين اللثتين .

ربما ضمَّن آشنباخ نظرته نصف الشاردة ، نصف المتفحصة ، التي تأمل بها الغريب ، شيئاً من التطفل . لاحظ فجأة أن هذا كان يحدق فيه بدوره ، وفي الواقع بصورة جد عدائية وبطريقة مصممة على المضي في التحدي وقسر نظر الآخر على الانكفاء ، إلى درجة أن آشنباخ الذي ضايقه ذلك جداً ، أشاح بوجهه وطفق يمشي على امتداد الحباك ، ممتنعاً مؤقتا عن الالتفات إلى الرجل . بعد قليل ، كان قد نسيه تماماً . إما أنه لدى ظهور الغريب ، صدمت خياله رؤى سفر ، أو أن تأثيراً جسدياً ومعنوياً كان في الدق ، فأحس في داخله ، وهو مندهش ، ما يشبه اتساعاً غريباً ، نوعاً من القلق الشارد ، من الرغبة الصبوية لقلب متعطش للبعد ، إحساساً جد حاد ، جد جديد ، منسياً من زمن جد بعيد ، بحيث توقف ويداه خلف ظهره وعيناه مطرقتان ، مسمَّراً إلى الأرض ، يتفحص طبيعة انفعاله وموضوع ذلك الانفعال .

كان ذلك هو الرغبة في السفر ، لا شيء أكثر . لكن رغبة

مشبوبة استولت عليه فجأة ، واهتاجت حتى الهلوسة . كانت رغبته تتخذ بعداً رؤيوياً ، فيما كان خياله ، الذي لم يستقر منذ عمله الصباحي ، يخترع زخرفة لكل من الألف معجزة ، من الألف هول أرضي ، التي حاول بغتة أن يتمثلها : كان يرى - كان يراه - منظـراً ، مستنقعـاً مدارياً تحـت سماء مشبعـة بالأبخرة ، دبقة ، مفرطة الحيوية ، مخيفة ، نوعـاً من الخـواء البدائي المصنوع من الجزر والبحـيرات السـاحلية والشُّعـب النهـرية التـي تجحف طمياً . كان يرى من طرف لآخـر في الأفق ، أشجار نخيل ذات جذوع موبرة تبرز من بين غابات سرخس غزير ، من هاوية نبـاتية لنباتـات كثيفـة الـورق ، منتفخة ،متفتحـة في ازهرارات خارقة . كان يرى أشجاراً ذات أشكال مشوهة غريبة تمـد في الفضـاء جذوراً تعـود فتمتـد في الأرض ، تغـوص في ظل وفي ألـق محيط ذي أمـواج خضراء مزرقة ومُسَمَّرة في مواضِعها ، حيث بين زهور عائمـة بيضـاء كالحليب ، وعريضة كقصـاع ، كانـت عصافـير غريبـة ذات مناقير شوهاء تحط على القيعان ، عنقها بين جناحيها ، عيناها منحرفتان ونظرتها جامدة . كان يرى حدقتـين تلمعـان لنمـر كامن بين القصبان المعقوقـدة لدغـل خيزران . وأحس بقلبـه

يخفق خفقاً أشـد ، من الرعـب ومـن الرغبـة الغامضـة . ثم اختفت الرؤ يا . فتابع آشنباخ ، بعد ان نفض رأسه ، نزهته على امتداد الحباك والنصب الجنائزية .

لم يكن نظر إلى النزهات ، على الأقل مذ أصبح بوسعه اكتشاف العالم ، الاستفـادة منـه والتمتـع به على هواه ، إلا كتدبير صحي كان عليه اتخاذه مكرهاً هنا وهناك . منشغلاً جداً بالمهام التي كانت تطرحها عليه ذاته والذات الأوروبية ، مثقلاً جداً بواجب الإنتـاج ، قليل الميل جداً إلى تسـلية النفس من أجل تذوق دغدغة عالم الظواهر كهاوٍ ، كان قد اكتفى حتى ذلك الحين بسهولة بالصورة التي يمكن لكل واحد أن يأخذها عن سطح الكرة دون أن يتحرك كثيراً من دائرته ، ولم تخامره أبداً تجربة مغادرة القارة . ثم إن حياته كانـت بدأت تميل إلى الزوال . إن تخـوف الفنـان من عدم الانتهـاء ، همّ التفـكير باحتمال توقف الساعة قبل أن يحقق نفسه ويكمل عطاءه ـ كل ذلك ، متحولاً إلى اكثر من فراشة سوداء يطردهـا المرء بيده ـ جعله يوقف بصورة شبه كلية الحدود الملموسة لوجوده في تلك المدينة الجميلة التي غدت مدينته ، وفي زاوية الريف القـاسي حيث أقـام في الجبـل ، وحيث كان يقضي فصـول الصيف

الممطرة . إن عقله وتحكمه بذاته الذي تمرس به منذ صباه ، سرعان ما كانا يلطفان ويضبطان تلك النزوة التي استولت عليه بصورة متأخرة جداً ومباغتة جداً . كانت نيته قبل ذهابه إلى الريف أن يصل بالعمل الذي نذر له حياته إلى نقطة معينة . إن فكرة رحلة بعيدة تصرفه عن عمله طيلة أشهر عديدة كانت تبدو جد عابثة ومعاكسة لتصميمه ، لذا ما كان عليه ان يتوقف عندها أبداً . ومع ذلك كان يعرف لماذا أخذ هكذا على حين غرة . حاجة غريزية للفرار . تلك كما اعترف لنفسه حقيقة ذلك الحنين إلى البعيد ، إلى الجديد ، الشبيه بتلك الرغبة المتعطشة للشعور بالحرية ، بالقاء الحمل عن الكاهل ، بالنسيان ـ الحاجة إلى الإفلات من عمله ، في المكان الذي كان يخدمه فيه كل يوم بقلب لا يلين وشغف بارد . كان يحب في الواقع خدمته ، ولقد أصبح تقريباً يحب النضال المثير للأعصاب والمتجدد كل يوم الذي تخوضه إرادته الصلبة ، المعتزة ، المجربة ، ضد ملل متنام كان على الجميع أن يجهلوه ، ولم يكن ينبغي أن يفضحه أي تراخٍ ، أي علامة تهاون في إنتاجه . لكن كان يبدو محقاً في عدم توتير القوس كثيراً وعدم الإصرار على خنق اندفاع متدفق بحيوية وعفوية فائقتين . فكر

في عمله ، في المقطع الذي توقف عنده اليوم كما البارحة . كان يبدو أنه لا ينبغي للمقاومة ان تستسلم حيال عنايةٍ صبور ، ولا أن تهزمها مهارة يدوية . عاود تفحصه ، محاولاً تارة ان يقطع العقدة ، طوراً ان يحلها ، إلا أنه أرخى قبضته رغماً عنه وقد سرت فيه قشعريرة . لم يكن ذلك عائداً لصعوبة خارقة واجهته ، كل ما في الأمر أنه كانت تشله الوساوس والكرب وإزعاجات تطلّب كان قد بلغ حداً لا يمكن معه لاي شيء أن يرضيه . لقد اعتبر منذ ايام مراهقته أن عدم الرضى هو جوهر الموهبة وأساسها الحميم . حبّاً به كبح عاطفته ، منعها من الاحتدام ، لأنه كان يعرفها لا مبالية ، ميالة للاكتفاء بما هو بين بين ، بكمال جزئي . هل كانت رهافة الحس المستعبدة تنتقم إذن بالتخلي عنه ، برفض الانطلاق بفنه أبعد ، برفض إعطائه أجنحة ، وبأخذها معها كل المتعة ، كل نشوة إعطائها شكلاً ، التعبير عنها ؟ هذا لا يعني أن ما يكتبه كان رديئاً . هنا كان يكمن على الأقل امتياز العمر ، بحيث أنه كان يشعر بنفسه كل لحظة ودون عناء واثقاً من جدارته . إلا ان تلك الجدارة التي كانت تحييها الأمة لم تكن تمنحه اي فرح ، ولقد كان يشعر أن شيئاً ما ينقص عمله بصورة واضحة ، شيئاً ما لم يعد يحمل

طابع نزوة متحرقة للتلاعب ، متدفقة من متعة الكتابة ، ومولدة لمتعة القراءة ، أفضل مما قد يفعل الغنى والعمق . كان يخشى الصيف في الريف ، والوحدة في البيت الصغير ، مع الخادمة التي كانت تحضر طعامه والخادم الذي يقدمه له ، كان يخاف الوجوه المألوفة للجبال التي كانت ذراها ومنحدراتها ستعاود التحلق حول شخصه المبطىء في العمل والمقطب الجبين . كان يلزمه استرخاء ، قليل من اللامتوقع ، من التسكع ، هواء عرض البحر الذي يرطب دمه ، من أجل ان يكون الصيف محمولاً ، ويعطي ثماراً . سوف يسافر إذن - فليكن . ليس بعيداً جداً ، ليس بالتحديد حتى بلد النمور . سيقضي ليلة في عربة نوم ، وبطالة تمتد ثلاثة اسابيع او أربعة في محطة كوسموبوليتية في الجنوب الضاحك .

هكذا كان يمضي فكره فيما يقترب ضجيج الحافلة الآتية عبر شارع أونجر . فيما هو يصعد ، قرر أن يخصص السهرة لدراسة خرائط وأدلة . على الموقف ، خطر له الرجل ذو القبعة من جديد ، ذلك الرفيق لبرهة لم تكن لا مبالية . تفقّده بنظراته ، لكنه لم يستطع التأكد إذا كان ما يزال هناك . لم يكن يمكن اكتشافه ، سواء في المكان الذي وقف فيه منذ حين او في الساحة او في الحافلة .

٢

إن مؤلف الحكاية الشفافة والقوية عن الحياة الملحمية لفريدريك ملك بروسيا ، الفنان الصبور الذي اجتهد طويلاً في روايته مايا أن يشبك أقداراً مختلفة بما يشبه وشياً يتجمع فيه ألف شخص في ظل فكرة ، ذلك الذي تصورت موهبته الجبارة قصة بائس ، وكشفت للشباب العارفين بالجميل أن ثمة ما وراء الهاويات المكتشفة أخلاقاً ثابتة ممكنة ، وأخيراً (وهنا تتوقف لائحة مؤلفات كهولته) مؤلف الفن والروحانية ، ذلك المبحث الممتليء وجداً ، الذي أمكن أن يوازي نقاد حصيفون بين طاقته التنسيقية ومعارضاته الفصيحة ومبحث شيللر ، حول الساذج والعاطفي ـ إن آشنباخ إذن قد ولد في ل . مركز مقاطعة من أعمال سيليزيا حيث كان والده يشغل وظيفة عليا في القضاء . كان أجداده ، من ضباط وقضاة وإداريين ، قد عاشوا في خدمة الملك والدولة حياة متكلفة ، لائقة وبين بين . ما كان عندهم من روحانية تجسد يوماً في شخص واعظ . في الجيل السابق ،

كانت والدة الكاتب ، وهي ابنة قائد جوقة كنسية تشيكي ، قد أدخلت في العائلة دماً أكثر حرارة . منها استمد ملامح العرق الأجنبي التي كان الناس يلاحظونها في شخصه . إن مزيج ضمير مهني صارم وتشوشات ، اضطرامات عصبية ، جعل منه فناناً ، هذا الفنان . كان كل شخصه معلقاً على فكرة المجد ، دون أن يكون ناضجاً حقاً قبل الأوان ، لذا بدا باكراً ، حيال نبرته الحازمة والشخصية والأخاذة ، أنه سيؤثر على الجمهور بنجاح . ما أن تخلص من قيود المدرسة حتى كان يشهر اسمه . كان بعد ذلك بعشر سنين ، قد تعلم وهو في حجرة عمله أن يلعب دور شخصية مرموقة ، أن يدير شهرته ويجيب على الرسائل بصيغ مختصرة ـ لفرط ما يشعر من ينجحون ويوحون بالثقة أنهم منهكون ـ دون أن تفتقد اللطف والتعبير . حين بلغ الكاتب الأربعين من عمره ، وفي حين كان كده المضطرب يكلفه جهداً كثيراً ، كان عليه أن يفض كل يوم رسائل تحمل طوابع كل بلدان العالم .

كانت موهبته ، التي تقف على مسافة واحدة من الغريب والتافه ، من النوع الذي يجتذب نحوه في الوقت ذاته رضى

الجمهور الواسع وإعجاب الجهابذة هذا الذي يلزم الفنان .

لذا فقد وجد نفسه منذ خطواته الأولى مضطراً إلى تلبية كل الرغبات ، حتى الأسمى منها ، فلم يعرف أوقات الفراغ ، العفوية اللامبالية لسن العشرين . في الخامسة والثلاثين من عمره ، وقع مريضاً في فيينا ، وبما انه كان على لسان الناس ، فقد أدلى أحدهم بذكاء بهذه الملاحظة : « عاش آشنباخ على الدوام هكذا » ـ وأبدى القبضة الشمال مشدودة ثم أضاف : « ليس أبداً هكذا » ، وترك يده اليمنى تتدلى بلا مبالاة على ذراع المقعد . كانت ملاحظته في محلها . كان لشجاعة العيش على هذا المنوال قيمتها من جهة اخرى ، ولا سيما ان آشنباخ لم يتمتع ببنية صلبة ، ولم يكن بطبيعته الناحلة مولوداً للبذل بقدر ما كان متذوراً له .

في طفولته ، نصح الأطباء أهله بعدم إرساله إلى المدرسة ، مما دفعهم إلى تثقيفه في البيت . ومع أنه كبر وحيداً ، دون رفاق ، فقد وعى باكراً أنه ينتمي لجيل لم تكن تندر فيه الموهبة ، بل الصحة التي تحتاج اليها الموهبة للتفتح ـ جيل سرعان ما يستنفد فنانوه طاقتهم الابداعية ويتلفون باكراً .

لكن كلمته المفضلة كانت « الصمود » . لم يطمح في قصته فريدريك الكبير الى شيء آخر غير تمجيد هذا الواجب الذي كان يبدو له أن أي فكرة فضيلة منفعلة وفاعلة تتبلور فيه . كان يتمنى كذلك بحرارة أن يعيش طويلاً ، لأنه كان مقتنعاً على الدوام أنه يكون وحده فناناً عظيماً ، كلياً ومحترماً حقاً ذلك الذي قيض له أن يمارس قدرته الإبداعية وأن يصور الإنسان في كل أطوار حياته .

بما أنه كان عليه أن يحمل أعباء الموهبة ، على كتفين ناحلتين ، ويريد الذهاب حتى آخر الشوط ، فقد كان بحاجة قصوى إلى الانضباط ـ ولحسن الحظ فالانضباط كان في دمه من جهة أبيه . في الخمسين ، في الأربعين من عمره ، وحتى في سن اكثر فتوة ، في سن يبدد فيه آخرون انفسهم ، يفرطون بالحماس ، يؤجلون بهدوء تنفيذ مشاريع كبرى ، كان هو يستيقظ قبل الفجر . ينضح جذعه بالماء البارد ، وأمام مخطوطته المحاطة بشمعدانين من الفضة تشتعل فيهما شمعتان كبيرتان ، كان يقدم للفن ، بقلب ورع ، وخلال ساعتين أو ثلاث ، ذبيحة القوى المجمعة إبان النوم . أما كان ينبغي عذر أولئك

الـذين ، لجهلهـم به ، نظـروا إلى كون روايتـه مايا أو إلى جدرانيات الحياة الملحمية لفريدريك الكبير كما لو كانت أعمالاً تدفقت دفعة واحدة ، فيما تم بناؤها في الواقع يوماً فيوماً ، لم ترتفع إلى علاها إلا تحت ضربات وحي تكررت ألف مرّة ، ولم تتفوق وتبلـغ ذلك الحـد من الـكمال إجمـالاً وتفصيلاً إلا لأن المؤلف انكب سنوات على النتاج ذاتـه ، مكرسـاً له ساعـات كاملة تؤاتيه فيها القوة والنعمة ، تحدوه إرادة وصلابة تقارنان بإرادة وصلابة فاتح مسقط رأسه سيليزيا .

مـن أجـل أن يفعـل عمـل عقلانـي رفيع في الجمهـور الواسع ، مباشرة وبصورة عميقة ، ينبغي أن يكون ثمة قرابة ـ لا بل تماثل بين قدر المؤلف الشخصي والقدر الغُفل لجيله . لا يعرف المعاصرون لماذا يهللون لعمل فني . هل هم جهابذة ؟ كلا . إنهم لا يريدون أن يكتشفوا فيه ذلك القدر من الصفات إلا لتبرير محاباتهم . في الواقع أن تلك المحاباة تستند إلى خفايا ، إنها تعاطف . كان آشنباخ قد مرّر هذه الملاحظة التي تقول إن أي عظمة موجودة تقوم على الإجابة بـ « وإذا كان ! » في شكل تحدٍّ بوجه الألف عائق التي يشكلها الغم ، الكدر ، الفقـر ، الاستسلام ، سرعة العطـب ، الشر والشغـف . كانـت تلك

أكثر من ملاحظة ، كانت تجربة حياته ، لا بل صيغتها ، كانت نجاحه ، مفتاح نجاحه . ما الذي يدهش مذ ذاك في أن تكون كذلك موقفاً وملمحاً عميقاً لشخصياته الأكثر تعبيراً ؟

إن محللاً ثاقب النظر يلاحظ للحال أن هذا البطل من نوع جديد ، الذي كان يتجسد دورياً في كل من الوجوه المفضلة لدى الروائي ، كان يمثل نموذجاً مثقفاً ورجولياً للمراهق ، المعتصم بحيائه ، والصار بأسنانه ، فيما تخترق سيوف وسهام جسده الجامد . كانت الكلمة جميلة ، لطيفة ودقيقة أيضاً وإن كانت تتخذ بقوة مظهر الملاحظة العابرة . لأنه ، أن ينتصب المرء في وجه القدر ، ويحتفظ بلطافته وسط العذاب ، ليس مجرد انفعال ، بل هو فعل وانتصار إيجابي . وإن صورة القديس سيبا ستيان هي أجمل رمز ، إن لم يكن للفن عموماً ، فعلى الأقل لهذا الفن . كان يجري التعرف عبر القصة الخيالية في روايات آشنباخ إلى التجسدات المتتالية هذه : الإنسان الذي يكبح نفسه ويتمتع بلباقة إخفاء المرض الذي يتأكله ، والدمار الفيزيولوجي الذي يصيبه ، عن أعين الناس إلى آخر لحظة . ذلك الذي فيما يؤجج الفسق الصفراوي لأعضاء رديئة ، يعرف أن يستخلص من النار الكامنة فيه شعلة نقية ، وأن ينقل بزهو

إلى صعيد الجمال البشاعة التي انطلق منها . ذلك الآخر ، الشاحب والواهن الذي يستمد من بالوع الروح الحارق ما يلزم من القوة ليدفع شعباً كاملاً معتداً بنفسه إلى الارتماء عند أسفل الصليب ، على قدميه . كذلك هذا الآخر الذي يضع نفسه ، وهو يبتسم ، في خدمة شكل صارم وفارغ . ذلك الذي تنهكه حياته الكاذبة والخطرة ، والذي يستهلكه منذ ولادته الفن والحاجة إلى خداع الآخرين : إن منظر أقدار على تلك الدرجة من التعقيد يؤدي بنا إلى التساؤل إذا كانت وجدت بطولة غير بطولة الضعف أو إذا لم يكن نموذج البطل هذا ، في كل حال ، نموذج بطل عصرنا على وجه التحديد ؟ كان غوستاف آشنباخ شاعر كل أولئك الذين يشتغلون على حد الإنهاك التام ، أولئك الرازحين ، المستهلكين تماماً وما يزالون واقفين ، أخلاقيي البطولة أولئك ، السريعي العطب بطبيعتهم والمفتقرين إلى السهولة ، الذين ينجحون ، بفضل إعمال إرادتهم وبناء على توفير حكيم لقواهم ، في أداء أعمال عظيمة ، ولو لفترة من الزمان . ليسوا قلة ، إنهم أبطال عصرنا . ولقد كانوا جميعهم يتعرفون على أنفسهم في نتاجه ، كانوا يجدون فيه ذاتهم مثبتة ، ممجدة بصورة غنائية ، ويعترفون له بالجميل ، يبشرون به .

كان قد شارك في اندفاعة القرن الفتية والقاسية ، ولم يخش ، مدفوعاً بها ، الكبوات والانحرافات . إستسلم جهاراً للشر المعروض دون رهافة وبلا روية في مقالاته وكتاباته . لكنه كان قد بلغ تلك الكرامة التي أكد أنها تثير بمهمازها منذ الأزل الموهبة الحقيقية ، ويمكن القول إن تطوره لم يكن إلا صعوداً نحو ذرى تسلقها لفرط المنهج ، وهو يتصلب ، متخطياً عوائق الشك والهزء .

إن حيوية وغنى الأشكال الفنية التي تتوجه إلى الأحاسيس دون أن تلزم الروح ، يأسران الجمهور البورجوازي ، لكن الشبيبة المشغوفة والمطلقة لا تتعلق إلا بما هو إشكالي ، ولقد كان آشنباخ مطلقاً وإشكالياً كأي مراهق آخر . برهن على كونه عقلياً صرفاً وحرفياً . جعل من المعرفة وسيلة للصوصية ، أنفق دخله مسبقاً ، دنس أسراراً مقدسة ، شبه الموهبة ، خان الفن ـ وفيما كانت خيالاته تتعهد قراء يحبون حباً ساذجاً ، تحييهم ، تبنيهم ، كان عيب من عيوب الكهولة قد جعله يدع الشباب المتدلي من شفتيه يتفوه بكلام ماجن حول الطبيعة الملتبسة للفن والفنانين . أغلب الظن أنه لدى الرجل ذي القدر والاصالة لا شيء ينفلّ بصورة أسهل وأحسم من ذوق المعرفة الذي يلسع

ويثير ويترك طعم المرارة . ومن المؤكد أن إرادة الشباب ، الصارمة والكئيبة ، الذهاب إلى آخر حدود المعرفة ، ليست شيئاً قرب ذلك التصميم العميق لسن الرجولة حيث الفنان الذي صار ممتلكاً ناصية فنه يقول لا للمعرفة ، ينحّيها ، يتخطاها مرفوع الرأس ، إذا كان من شأنها أن تضعف الإرادة ، وتثبط الهمة للعمل ، أو حتى أن ينتزع من الشغف عظمته . ما كان بائسه المشهور غير انفجار قرفٍ في وجه « نفسانوية » العصر الفاقعة متجسدٍ في الذات الرخوة والغبية لذلك الشخص المشبوه الذي له سلوك الزحافات ، الذي يحسم أمره بدفع زوجته إلى أحضان فتى جميل ، نتيجةً لعجز ، لنقيصةٍ ، لتذبذب أخلاقي ، والذي يعتقد الفظاظات مسموحاً بها ، بحجة العمق ؟ إن قوة التعابير التي كان يستهجن بها ما هو جدير بالذم كانت تبشر بإرادة إنكار كل أخلاق غير أكيدة ، كل تعاطف مع الهاويات ، إرادة التخلي عن الاسترخاء ، عن هذه الشفقة الرخوة التي تجعل المرء يقول إن فهم كل شيء يعني العفو عن كل شيء : كانت قد اكتملت في ذلك العمل « معجزة العفوية المستعادة » التي سوف يلح عليها فيما بعد في أحد حواراته ، بنبرة لها مسحة السر الخفي . أي توافق

عجيب ! مع « انبعاث » الروح هذا ـ هل كانت الصرامة ، الانضباط المستعاد سبباً في ذلك ؟ ـ كان ذوق الجمال يتخذ لديه حيوية جديدة ، شبه مسرفة ، وكان المرء يجد في نتاجه حس الرزانة الأستقراطي هذا ، حس البساطة ، نقاوة الاشكال ، ذلك الأسلوب الكلاسيكي جهاراً وعن سابق تصميم ، الذي ما انفك يميزه مذ ذاك . لكن أليس اتخاذ موقف بهذه الصلابة ما وراء المعرفة ، خنق الفضول الثقافي المزعج المضني ، هو كذلك إرجاع الكون والروح إلى بساطة جد بسيطة وإرجاع قدرة اخرى للشر لما هو ممنوع ، لما هو مختل ؟ والأسلوب بالذات ، أليس له وجه مزدوج ؟ أليس في الوقت ذاته أخلاقياً وغير أخلاقي ـ أخلاقياً من حيث هو يرتبط بنظام ويصوغه ، لكن كذلك غير أخلاقي لا بل مضاداً للأخلاق ، من حيث هو يفترض بطبيعته اللامبالاة حيال كل أخلاقية ومن حيث اتجاهه الأساسي حصر الأخلاقية ، إلحاقها بطغيانه المتعالي والمطلق ؟

زد على ذلك أن التطور هو الخضوع للحتمية ، ولا نتخيل إطلاقاً فناناً يقدم الحرفة ذاتها إذا كان له التعاطف وثقة الجمهور الواسع السلبية ، او إذا كان يمضي وحيداً ، دون ألق المجد

والواجبات التي يخلقها . فقط أولئك المنذورون لحياة تشرد دائمة يبتسمون ويجدون تافهاً أن يروا صاحب موهبة يفلت من الفجور ، ينتقل من النغفة إلى الكائن المكتمل ، ولا يعود يوافق على تلقائية الروح ، يقدر الوضع ، يجده معبِّراً ، يتقوقع في عزلة ارستقراطية ويخوض فيها ، من دونما نجدة ، المعركة الأليمة الشرسة التي تؤدي إلى الأمجاد ، إلى السلطة . ثم أي لعبة ، أي تحدٍّ ، أية متعة في أن يشتغل المرء هكذا لذاته من حيث هو فنان ! مع مرور السنين ، أصبحت كتابات آشنباخ تتسم بشيء من الحذلقة ، من الرسمية . شيئاً فشيئاً صار أسلوبه يتجرد من زخرفه ، لم نعد نجد فيه الجسارات الدفاقة ، الغرابة ، دقة المراحل الأولى ، أصبح يطرح نفسه كمثال ، يجعل من نفسه قاعدة ، ينقح كتاباته وفقاً للتقليد ، أصبح محافظاً ، شكلياً لا بل حِكَمياً ، وفيما كان يشيخ ، كان يستبعد من لغته كل تعبير مبتذل ، كما يقال عن لويس الرابع عشر إنه كان يفعل . في تلك الفترة بالذات ، أدخلت الإدارة الجامعية صفحات مختارة من نتاجه في كتب القراءة المقررة للمدارس . كان تدبير كهذا يرضيه عميقاً ، وقد امتنع عن رفض لقب النبالة الذي أراد الامبراطور الشاب أن يكافىء به

لدى تسلمه العرش مؤلف فريدريك الكبير .

بعد سنوات من التشرد ، وعدة محاولات للإقامة حيناً هنا وطوراً هناك ، استقر باكراً في ميونيخ ، وعاش فيها محاطاً بالاحترام البورجوازي الذي يتفق للمثقف أن يتمتع به في بعض الحالات . ولما كان تزوج ، وهو شاب ، ابنة أحد العلماء ، فقد عرف فترة قصيرة من السعادة التي وضعت حداً لها وفاةزوجته . بقيت له ابنة كانت قد تزوجت . لم تنجب له امرأته ولداً ذكراً .

كان غوستاف آشنباخ ذا قامة مائلة الى القصر ، أسمر ، حليق الوجه كلياً . كان رأسه يبدو قوياً إذا قورن بجسده الرهيف . وكان شعره المردود إلى الوراء ، المبعثر عند أعلى الرأس ، الكثيف والأشيب عند الصدغين ، يحيط بجبين عال متغضن ، بحيث يعتقد المرء أنه مغطى بالندوب . أما النابض المذهّب لعدسات غير محاطة بدوائر فيحز أنفاً أقنى ومتجمعاً عند قاعدته . وتنغلق شفتاه عادة برخاوة أو تتقلصان مضيقتين فجأة فمه الواسع . كان خداه الهزيلان محفورين بأثلام ، فيما يرى الناظر إلى ذقنه المحكم غمازة . كما لو ان القدر أنشب في

ظروف خطيرة مخلبه في تلك الهيئة المنحنية طوعاً بتعبير ألمٍ ، فيما لم تكن تدين إلا للفن بنموذج مجسم يعود عادة لطوارىء حياة مضطربة . من هذا الجبين انبثقت الردود السريعة المشرقطة في محادثات فولتير وفريدريك الثاني حول موضوع الحرب . تان العينان اللتان كانت تندعنهما عبر النظّارة نظرةً عميقة ومتعبة ، قد اكتشفتا الجحيم الدامي لعربات إسعاف حرب السبع سنوات . إن تمجيد الحياة الذي يقدمه الفن للاشياء ، إنما يمنحه أيضاً للفنان الخلاق . يمنحه سعادة تمضي أكثر إلى الأمام ، شعلة تحرق أسرع . يحفر في وجه المتعبدين الورعين رسم مغامرات ذهنية ، أوهام ، وحتى لو عاشوا كما في عزلة الدير ، فهو يمنحهم على مر الأيام ، إلى درجة نادرة حتى بالنسبة لا مرىء عيّاش ، أعصاباً مصفّاة ، مرهفة ، دائمة التعب وفي يقظة دائمة . . .

٣

بعد النزهة الغريبة التي قام بها الروائي ، اضطر إلى البقاء أسـابيع في ميونيخ لضرورات عملـه ، لكنـه كان مستعجـلاً للرحيل . وأخيراً ، تمكن في منتصف شهر أيار من إعطاء الامر بإعداد منزله الريفي ليحل فيه في الشهر اللاحق ، ثم استقل القطار الليلي إلى مدينـة تريست . لم يتوقف إلا يوماً واحداً في تلك المدينة ، ففي الغداة ركب السفينة إلى بولا .

كان يبحث عن العلامة الغريبة ، عن الاغتراب ، وهما شيئان سهلا المنال . إستقر في جزيرة في البحر الأدرياتيكي تم تحديثها منذ وقت قصير ، قرب ساحل إيستـري . كان يعيش فيها فلاحون يرتدون أسمالاً جذابة ويتكلمون لهجة لا تفهـم منها كلمة ، ويقع فيها المرء على شواطيء صخرية مقطعة من جهة عرض البحر . لكن المطركان يسقط ، وكان الجو ثقيلاً ، والفنـدق عامـراً ببورجـوازية صغـيرة نمسـاوية منغلقـة على الأجانب ، ولم يكن الساحل يتمتع بتلك البلاجـات الـرملية

الرخوة التي وحدها تجعلك تتآلف مع البحـر . كل ذلك كان يتركه كئيباً ، يفقده الشعور الـذي يحس به المرء حـين يواتيـه الحظ . ثمة قلق ، شيء ما كان يدفعه للرحيل دون أن يعرف إلى اين . كان يدرس موعد سفر المراكب ، يستجوب الأفق ، وفجأة ـ كيف لم يفكر بذلك من قبل ؟ ـ عرف إلى أين ينبغي أن يمضي . إلى أين يذهب المرء عندما يريد في وقت سريع أن يتملص من العادي ، يعثـر على ما لا مثيل له ، على المعجـزة الاسطورية ؟ كان يعرف إلى أين . ما الذي كان يفعله هنا ؟ لقد أخطأ . كان نوى الذهاب إلى هناك . لم يتردد ، بل أعلم الفندق بنيته الرحيل . لم يمر خمسة عشر يوماً على وصوله إلى الجزيرة الخادعة حتى استقل زورقاً في صبـاح ضبابـي وعـاد سريعاً إلى الميناء الحربي ، وهو لم يتوقف هناك إلا لكي يجتـاز حالاً العبّارة التي قادته إلى جسر المركب المبلل المتأهب للانطلاق إلى البندقية .

كان مركباً ايطالياً أسود ومغشى بالسخـام ما أن وضـع آشنباخ رجله على الجسر حتى قاده بحـار أحـدب ، متسـخ ، بتكشيراته التي تحاول أن تتسم بالتهذيب ، إلى حجرة كانت لها

هيئة مغارة ذات إضاءة اصطناعية . إستقبله من خلف طاولة رجلٌ بلحية تيس وحركات مدير سيرك مقاطعة ، معتمر قبعة تغطي أذنيه ، وعقب سيكارة بين شفتيه ، إستقبله بتكشيرات جديدة ، متخذاً مظهراً طلقاً لتسجيل المسافرين وتسليمهم تذكرتهم . « ألبندقية ! ـ كرر من بعد آشنباخ ماداً ذراعه ومحركاً ريشته في المحبرة التي كان يحنيها أمامه ـ البندقية ، درجة أولى ! هاك أيها السيد ! » . خربش كتابة رقيقة ، صب على الحبر الطري رملاً أزرق عاد فكبه في طاس من خشب ، ثم ثنى الورقة بأصابعه الصفراء المعقوقدة وعاد يكتب . كان يثرثر وهو يخربش : «أنت ذاهب إلى مكان جميل! البندقية ! أية مدينة ! أي سحر يتمتع به من يتعرف إليها جيداً ! وإلى ماضيها ـ وما يرى فيها اليوم ـ مما لا يُقاوَم ! » وفي لحظة قبض ورد الباقي الذي زلقه على قماش مكتبه الملطخ ، بمهارة مدير لعبة قمار . ثم أضاف وهو يقوم بانحناءة احترام مسرحية : « تَسلٍّ جيداً أيها السيد . إنه لشرفٌ لي أن أنقلكم ، أيها السادة ! » ، ورافعاً ذراعه ، نادى اللاحقين كما لو كان هناك طابور مصطف على الباب ، مع أنه لم يكن ثمة بعد زبون واحد . أما آشنباخ فعاد إلى الجسر . نظر ، وهو يسند مرفقه للدرابزون ، إلى الجمهور

العاطل عن العمل الذي كان يتسكع على الرصيف منتظراً رحيل المركب ومن عليه . كان ركاب الدرجة الثانية يجلسون في المقدمة على طرود وصناديق . بدا على مسافري الدرجة الاولى أنهم مستخدمو مخازن في بولا ، مجموعة من الشباب ، الذين اتفقوا على القيام برحلة إلى ايطاليا ، يستثير السفر حماسهم . كانوا يسبغون أهمية كبرى على ذلك ، يتفاخرون ، يثرثرون ، يضحكون ، يلتذون بأنفسهم وبجلساتهم بغرور ، ينحنون ما فوق حرف المركب مطلقين لرفاقهم ، الذاهبين إلى أعمالهم ممسكين بمحافظهم ومجتازين شارع الميناء ، ممازحات كان هؤلاء يردون عليها مهددين بطرف العصا أصحابهم الذين يختفون . واحد من الشباب ، وهو ولد ذو صوت رمادي يرتدي ، بالإضافة إلى ربطة عنق حمراء وقبعة من القش الملون ذات انحناءة مبالغ بها ، طقماً صيفياً أصفر فاتحاً مفصلاً تفصيلاً غريباً ، كان يبدو منطلقاً بصورة خاصة . لكن بعد أن تطلع إليه آشنباخ عن كثب ، لاحظ باشمئزاز أنه كان إزاء شاب مزيف . لا ريب أن هذا الأخير كان شيخاً متصابياً لاحظ التغضنات في فمه وعينيه . كان أرجوان خديه الكامد مجرد خضاب ، وشعره الأسود تحت القبعة ذات الشريط

الملون مستعاراً . يسمح عنقه الرخو برؤ ية أوردة منتفخة ، أما الشارب الصغير المرفوع وعنفقة الذقن فكانا مصبوغـين ، فيما كانت اسنانه التي تكشفها ضحكته في صف منتظم مجرد وجبة رخيصة ، ويداه اللتـان تحمـلان في السبابتـين خواتـم عقيقية منقوشة يدي شيخ عجوز . راقب آشنباخ مسلكه ومسلك رفاقه وهو يرتجف اشمئزازاً . ألم يكن هؤلاء يشعرون بشيخوخـة صاحبهم ؟ ألم تصدمهم رؤ يته يكتسي بطريقة نزقة ، يتكلف أناقتهم ويحاول الظهور بمظهر واحد منهم ؟ لكن يبدو أنهـم كانوا يقبلونه بينهم بصورة طبيعية ، أنهـم اعتـادوا عليه . لم يكونوا يفرقون بينهم وبينه ، بل يردون دون قرف على نكعاته ومزحاته . « كيف يمكن لهذا أن يحصل ؟ » ، تساءل آشنبـاخ ممرراً كفه على جبينه وأغمض جفنيه اللذين كانا يضايقانه لأنه لم ينم كفاية . كان يجد نفسـه مشـدوداً خارج الواقـع وشبـه منخـرط في مغامـرة ، في حلـم يتبـدل فيه العالـم ، يخضـع لتشويهات غريبة ربما كان سيضـع حداً لهـا عن طريق وضـع شاشة أمام عينيه قبل أن يرفعهما مجدداً على المحيط . لكنـه في تلك اللحظة بالذات ، شعر بطفو ، وفجأة استولى عليه خوف أبله فنظر ورأى هيكل المركب الثقيل والقاتم ينفصل ببطء عن

الرصيف الصخري . شيئاً فشيئاً كان المرء يرى ، وهو يتقدم ويتراجع تحت وطأة إجهاد الآلة ، رقعة المياه الدسمة والمبرقشة تتوسع بين الرصيف والمركب ، وبعد مناورات عوجاء ، تمكن هذا الاخير من الاستدارة بمقدمه نحو عرض البحر . ذهب آشنباخ وجلس على الميمنة حيث وضع له الأحدب كرسياً طويلة ، وجاء رئيس خدم يرتدي فراكاً ملطخاً بالشحم يعرض عليه خدماته .

كانت السماء رمادية والهواء رطباً . لم تعد الجزر والميناء على مرمى النظر ، واختفى الساحل بعد قليل في الأفق المغشى بالأبخرة . أما المدخنة فكان يتساقط منها سخام رطب على الجسر الندي المغسول الذي لم يكن ينوي الجفاف . لم تمر ساعة على الانطلاق حتى توجب نشر الخيمة لأن المطر بدأ يتساقط .

كان المسافر يخلد للراحة متلفعاً بمعطفه ، ممسكاً بكتاب فوق ركبتيه ، والساعات تمر دون أن يشعر بمرورها . توقف المطر عن الهطول فانتُزعت الخيمة من مكانها . كان الأفق واضحاً تماماً . لا شيء تحت السماء الرمادية إلا البحر الواسع

القفر . لكن في الفراغ ، في الفضاء غير المنقسم ، نفقد كذلك مفهوم الزمن ، وتغرق روحنا في المغالاة . هكذا كان آشنباخ يرى وهو متمدد الشيخ المتصابي ، الرجل ذا لحية التيس الذي رآه قبل قليل ، أشباحاً غريبة لم يكن يتوصل إلى إدراك حركاتها أو كلماتها . وما عتم أن أخلد للنوم .

طُلب منه عند الظهيرة أن ينتقل للغداء في غرفة الطعام التي تنفتح عليها القمريات . إلتقى على الطرف المقابل من الطاولة الطويلة الوكلاء ورفيقهم الشيخ ، وكانوا جلسوا هناك منذ العاشرة يشربون مع الكابتن المرح . كان الطعام هزيلاً وقد امتنع عن تناوله . كان يحتاج للخروج ، لتأمل السماء ، لمعرفة ما إذا سوف يحدث صحو عابر في البندقية .

لم يكن يبدو له أن الأمور يمكن أن تكون غير ذلك ، لأن المدينة استقبلته دائماً في هالة ضوء ، لكن السماء والبحر بقيا معبأين وكابيين ، وبين الحين والآخر كان يتساقط الرذاذ . إستسلم لفكرة الوصول من جهة البحر إلى بندقية غير تلك التي كان يكتشفها سابقاً وهو قادم إليها من البحر . أسند ظهره إلى شراع الميزان تاركاً نظره الذي كان يبحث عن اليابسة يسرح في

البعيد . كان يفكر بشبابه المتحمس والكئيب الذي شاهد في الماضي القباب والابراج التي طالما حلم بها تنبجس من بين تلك الأمواج . كانت تغني في ذاكرته لأولئك الذين أوحى إليه احترامهم وسعادتهم وكآبتهم آنذاك الايقاع المتناغم ، ودغدغه بمشاعر وجدت في إحدى المرار تعبيرها . كان يستجوب قلبه الرزين المتعب إذا يقيض للسائح الآتي لتضييع الوقت أن يستعيد الحماس القديم ، وإذا لم تكن ربما تنتظره مغامرة عاطفية متأخرة .

إرتسم عن يمينه الشاطىء مسطحاً تماماً . كانت مراكب صيد تُدب، الحياة في البحر . ظهرت جزيرة المسابح التي تركتها الباخرة عن شمالها لتجتاز المضيق الذي يحمل الاسم ذاته ببطء ، وتتوقف في نهاية المطاف عند البحيرة الساحلية ، في مواجهة بيوت مبرقشة بائسة بانتظار زورق مصلحة الصحة .

توجب انتظاره ساعة كاملة . وصل الركاب دون أن يصلوا . لم يكن ثمة ما يستدعي العجلة ، ومع ذلك كانوا نافذي الصبر . كان فتيان بولا ، الذين اهتز الوتر الوطني لديهم دون ريب قليلاً بفعل نفخات البوق الآتية فوق الماء من

جهة الحديقة العامة ، قد صعدوا على الجسر ، وكانوا يطلقون تحت تأثير خمر آستي صيحات وطنية على شرف الجنود المشاة الظاهرين مقابلهم في ساحة التدريب . إلا أنه كان مشهداً مقرفاً أن يرى المرء في أي حال وضع العجوز نفسه وهو يشارك أصحابه الفتيان حماسهم . لقد فعلت الخمرة التي يتحملها شباب صلب فعلها في رأس العجوز الذي كان سكره مثيراً للشفقة . كان يتمايل في مكانه من السكر ، متعتع النظر ممسكاً بسيكارة بين أصابعه المرتجفة ، فيما يهتز من الأمام إلى الوراء ، ومن الوراء إلى الامام ، محافظاً على توازنه بصعوبة كبيرة . وبما أنه ماكان ليخطو خطوة دون أن يتعثر ، فقد امتنع عن التقدم ، إلا أنه كان يستسلم لنوبات مرح مفجعة ، يمسك كل الذين يقتربون منه بأزرارهم ، يقول لهم أشياء لاانسجام فيها ، يغامزهم ، يغرق في الضحك ، يرفع إصبعه المغطى بالخواتم والتجاعيد لدى سماعه حتى مزحات تافهة ، ويلكح بطرف لسانه ملتقى الشفتين وهو يطلق تضمينات خسيسة . كان آشنباخ يراقبه على تلك الحال وحاجباه مقطبان . ومن جديد أحس برأسه يضيع كما أمام مشهد عالم يتحول بصورة خفيفة لكن لا تقاوم نحو الخارق ، يتغضن ، يتشوه شيئاً فشيئاً ، لكن

دون التوقف مع هـذا عند ذلك الانطباع : كان الـركاب على وشك النزول ، فارتجاجات الآلـة عادت من جديد وواصـل المركب طريقه عبر قناة سان ماركو قبل ان يرسو على الشاطىء .

كان سيرسو إذن مرة أخرى في ذلك المكان الذي يذهـل الخيال والذي كانت هندسته المدهشـة الخارقـة تفعـم ذهـولاً واحتراماً أولئك الملاحين الذين كانوا يبلغون في الماضي أرض الجمهوريـة : فخامـة القصر القديمـة وجسر التنهـدات على الشاطـىء ، الأعمـدة ، الأسـد ، القـديس ، الجنـاح النافـر الفخم للهيكل الأسطوري ، الإطلالة على البوابة وعلى الساعة الكبيرة . وحيال هذا المشهد كان يشرع في التفـكير أن بلـوغ البندقية عبر سكة الحديد يشبه دخول قصر من البوابة الخلفية . لم يكن ينبغي الاقتراب من المدينة المذهلة إلا كما فعـل هو ، على متن سفينة ، وعن طريق البحر .

توقفت الآلة ، وتقدمـت الغونـدولات . ثم بُسـط جسر النزول ، وصعد رجال الجمارك لتفقد الأمتعة . كان بالامكان الترجل . عبر آشنباخ عن رغبته في استئجار غوندول يوصله مع أمتعته إلى محطة قوارب النزهة التي تؤمن الطريق بين المدينـة

والليدو ، لأنه كان ينوي الإقامة مقابل البحر . مفهوم ! أعطيت أوامر لأصحاب الغوندولات الذين كانوا يتجادلون باللهجة البندقانية . أراد آشنباخ النزول لكن حالت دون ذلك بالضبط حقيبته التي كانت تسحب وتجر وتدفع بصعوبة على طول الدرج النقال . ها هو إذن مضطر أن يتحمل عدة دقائق ذلك الشيخ المتصابي الرهيب والتحيات المحتشمة التي يجعله سكره يفيض بها تجاه الغريب . « إقامة ممتعة ، أيها السيد ، إقامة ممتعة في البندقية » ، هكذا ثغا الرجل وهو يقدم آيات الاحترام والتبجيل . « إحتراماتي التي لا تحصى ، ولا تنسنا . إلى اللقاء

excusez und bonjour, Euer, Exzellenz! *

كان يسيل لعابه ، يغضن جفنيه ، يلكح زاوية شفتيه ، وترى وبرات عنفقته المصبوغة تنتفش على ذقنه ، ثم يتغتغ وهو يلامس فمه بطرف إصبعيه : « تهانئي القلبية ، تهانئي القلبية للصديقة الطيبة ، للصديقة الجميلة جداً ، ألعزيزة جداً ، الطيبة جداً . . » . وفجأة سقط من فكه طقم اسنان يتدلى من الشفة السفلى . أفلت منه أشنباخ . « للصديقة الطيبة ،

* عذراً ونهار سعيد يا صاحب السعادة ! (م)

للصديقة الجميلة » ، تابع الآخر بصوت مخمور ، يهدل بين حازوقتين ، فيما ينزل المسافر الجسر الهابط متمسكاً بالحبل .

من لا تسري فيه قشعريرة خفيفة ، أو لا يكون عليه ان يتحكم بنفور ، بخوف خفي وهو يضع قدميه للمرة الاولى ، أو على الأقل للمرة الأولى منذ زمن بعيد ، في غوندول بندقاني ؟ زورق غريب ، موروث على حالته من العصر الوسيط ، ذو سواد خاص شبيه بسواد التوابيت على وجه التحديد ـ هذا يذكّر بالمغامرات الليلية الصامتة والمجرمة حيث لا يسمع المرء الا طبطبة المياه . يوحي ذلك بفكرة الموت بالذات ، بأجساد منقولة على محفات ، بأحداث جنائزية ، بسفرة نهائية صامتة . أليس الكرسي في زورق من هذا النوع ، ببرنيقه الصيني وبالسواد الداكن للوسادات المخملية ، هو المقعد الأكثر إثارة ، الأكثر نعومة ، والأكثر إرخاء ؟ لاحظ آشنباخ ذلك ما أن استقر عند قدمي الغوندولي إزاء أمتعته المجموعة بعناية في مقدمة الغوندول المرفوعة . واصل الملاحون التخاصم بحركات مهددة وكلمات فظة لم يكن يفهم معناها . لكن الصمت الملحوظ لمدينة المياه كان يبدو أنه يستقبل الأصوات بهدوء ، ينتزع منها جسمها ، يفتتها على سطح

الموج . كان الطقس حاراً في المرفأ . يغمض المسافر عينيه ، فيما يترك هبة الريح الشرقية الفاترة تتلاعب به ، وهو مسترخ ، مستسلم بين الوسائد لإيقاع الماء المدغدغ . كان يتذوق اللذة اللطيفة والنادرة التي يشعر بها وهو يترك الأمور تجري في أعنتها . « لن يدوم العبور طويلاً ـ فكر في قرارة نفسه ـ لو كان يدوم إلى الأبد ! » . وفيما كان يهدهده الغوندول الخفيف ، أحس بالانزلاق ، بالإفلات من الجلبة والأصوات .

كم كان يتعاظم الصمت حوله ! لم يكن المرء ليسمع سوى ضجيج المجاذيف التي «تهوي بإيقاع ، وطبطبة الأمواج التي تشقها مقدمة الزورق الذي ينتصب فوق المستوى ، اسود صلباً مقطوعاً على شاكلة طبر مستطيل عند حده الأقصى ـ إلا أن شيئا آخر كان يُسمع أيضاً ، صوتاً غامضاً . . . كان ذلك هو سائق الغوندول يتمتم ، يكلم نفسه بصوت خافت ، بكلمات متقطعة بين تجذيفتين. رفع آشنباخ عينيه واندهش قليلاً وهو يلاحظ أن صاحب الغوندول يجذف نحو عرض البحر ، كان يتعلق الأمر إذن بعدم نسيان الذات كلياً وبالحرص على أن ينفذ الرجل التعليمات المعطاة إليه .

ـ إلى محطـة المراكب ، أليس كذلك ؟ هكذا قال وهـو يستدير نصف استدارة. لكن الغوندولي اكتفى بوقف مناجاته ولم يجب .

ـ إلى محطة المراكب ، قلت ! كرر آشنباخ وهو يستدير كلياً ، رافعاً عينيه بوجه الغوندولي الذي كان يستقر من الخلف على مقعد عال يبرز خياله فوقه بوضوح على سماء داكنة . كان ذلك الرجل ذو الهيئة المزعجة ، الفظة ، يرتدي ثوباً أزرق يلتف بزنار عريض أصفر ، يعتمر فخوراً قبعة مائلة لم يَعُدْ لها شكل ، تمزق قشها هنا وهناك . لم يكن ما يوحي فيه انه طلياني ، لا تفصيل وجهه ولا شاربه الأشقر المجعد قليلاً . ومع أنه كان يبدو عليه الهزال بحيث يشعر المرء أنه لا يصلح لمهنته ، فقد كان يجذف بقوة ، باذلاً كل جهده مع كل تجذيفة . كان يتفق ان يشد الجهد شفتيه إلى الخلف فتتكشفان عن أسنان بيضاء ، قطب حاجبيه الأصهبين وتطلع إلى زبونه من عل ثم أجاب بنبرة حازمة وشبه فظة :

ـ أنت ذاهب إلى الليدو ؟

ـ طبعاً ، أجاب آشنباخ . لكنني لم أطلب غوندولاً إلا

إلى سان ماركو . آخذ من هناك الزورق البخاري .

ـ لا يمكنك أن تأخذ ايها السيد الزورق البخاري .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه لا ينقل أمتعة .

كان ذلك صحيحاً . تذكر آشنباخ هذا الامر وسكت . إلا أن أساليب الرجل الفظة ، طريقته في التعامل من عل مع غريب ، وهو ما لم يكن من تقاليد البلاد ، بدت له غير محتملة .

ـ هذا شأني ـ أجاب ـ فقد أودع أمتعتي . أما أنت فعليك العودة على أعقابك !

ساد صمت عميق . لم يعد يسمع المرء سوى طبطبة الماء ، أكثر وضوحاً تحت المجذاف ، عديمة الرنين وصماء عند المقدمة . ثم عاود الصوت ، مخنوقاً ، غامضاً : كان الغوندولي يناجي نفسه .

ماذا يقرر ؟ لم يكن المسافر يعرف كيف يفرض طاعته ،

وهو وحيد في الـزورق مع هذا المقـدام الغـريب ، المشـؤ وم والجـازم . في كل حال ، كم يكون مرتاحـاً ومستـرخياً فيما لو تراجع عن ذلك ! ألم يتمنَّ أن يطول العبور ، ألاّ ينتهي ؟ ألا يكون معقولاً أكثر ، لا بل ألذ ، أن تترك الأمور لمقاديرهـا ؟ أحس بالكسل يمتلكه وكما لو كان مربوطاً بتأثير مغناطيسي إلى مقعده ، إلى ذلك المقعد الواطىء والمؤ رجح بهدوء ، بوساداته السوداء ، على إيقاع مجـاذيف الغونـدولي المتصـلف الجـالس خلف ظهره . لامسـت روحه كحلم فكرة إمكان أن يكون في نية الرجل الاعتداء على حياته . لكنه لم يكن قادراً إطلاقاً على التخلص من خدره ، على الدفاع عن نفسه . كان يثيرهمه أكثر أيضا تفكيره أن الأمر ربما لا يتعلق إلا بابتزاز ماله شيءٌ ما شبيه بالشعور بالواجب ، إعتزاز قديم وتذكر ما ينبغي عمله في تلك الحال ، كل ذلك جعله يستدرك فيسأل :

ـ كم تقبض للذهاب إلى هناك ؟

قال صاحب المركب ونظره متجه إلى البعيد من فوق رأس آشنباخ :

ـ سوف تدفع .

كان جواب على هذا الـكلام يفـرض نفســه . فأجــاب آشنباخ آلياً :

ـ إطلاقاً . لن أدفع إذا كنت تقودني إلى حيث لا أنـوي الذهاب .

ـ أنت ذاهب إلى الليدو .
ـ لكن ليس معك .
ـ أنا أسوق جيداً .

« صحيح » ، فكر آشنباخ واسترخـى . « صـحيح أنـك تسوق جيداً . حتى ولو كنت تحقد على محفظة نقـودي ، ولـو أرسلتني إلى الجحيم بضربة مجـذاف من الخلف ، فأنـا أسلـم بأنك سقت جيداً » .

لكن لم يحـدث شيء من ذلك ، حتـى أن آشنبـاخ رأى غوندوليه يجذف بعد ذلك بقليل بمصاحبة موسيقيين متجولين ، مجموعة من الرجال والنساء الشاردين الذين كانوا يغنون وهم يعزفون على الماندولـين والغيتـار محـاذين بغوندولهـم غونـدول آشنباخ بإصرار ، مالئين الصمت البحري بأنغامهـم المجلوبـة

المطروحة للبيع . رمى آشنباخ نقوداً في القبعة التي كانوا يمدونها نحوه . توقفوا عن الغناء ومضوا في طريقهم . عند ذلك عادت تسمع شكاة الغوندولي الذي واصل مناجاته المتقطعة وغير المترابطة .

إن الغوندول ، الذي كان يهدهده شق المياه خلف زورق بخاري صغير ، رسا إذن في المرفأ الصغير . كان رقيبان اولان من المدينة يتحركان في كل اتجاه ، ويداهما خلف ظهرهما ، ووجههما نحو البحيرة الساحلية . فشخ آشنباخ فوق الغوندول وصعد على الجسر يساعده واحد من أولئك العجائز الذين يجدهم المرء في البندقية عند كل جسر عائم ، مسلحين بمحجن . ولما لم يكن يحمل نقوداً ، مضى إلى الفندق المواجه لتصريف العملة ونقد الغوندولي ما يطلبه . عاد بعد أن صرف . كانت حقيبته قد وضعت على الرصيف في عربة صغيرة ، إلا أن الغوندول وصاحبه اختفيا . « لقد هرب ـ قال العجوز ـ لا ينبغي الثقة بهذا الرجل . لا يحمل تصريحاً أيها السيد . إنه الغوندولي الوحيد الذي لا يحمل تصريحاً . تلفن الآخرون لإبلاغ الشرطة . رأى أنه سيقع بين أيديها فهرب .

ـ لقد وصل السيد إلى هنا دون أن يدفع شيئاً » ، قال العجوز وهو يمد برنيطته . رمى آشنباخ قطع نقود فيها ثم أعطى الأمر بنقل أمتعته إلى فندق الحمامات ولحق بالعربة على امتداد المعبر ، المعبر الأبيض المزدان بالزهور الذي يقود إلى الشاطىء عبر الجزيرة بين حانات وفنادق وأسواق .

وصل خلف الفندق الواسع الذي دخله عبر المصطبة . ذهب مباشرة إلى المكتب ، مجتازاً البهو والرواق . وبما أنه أعلن عن نفسه قبل قدومه ، فقد جرى استقباله بحفاوة وحسبما هو مقرر . قاده مدير المؤسسة ، وهو رجل قصير ذو شاربين أسودين وسترة طويلة من النمط الفرنسي ، قاده بتهذيب رصين إلى المصعد ودله على غرفته في الطابق الثاني . كانت غرفة لذيذة ، أثاثها من خشب الكرز الفاتح اللون ، مزدانة بالزهور ذات العطر المدوّخ . ما أن أصبح آشنباخ لوحده حتى تقدم من إحدى النافذتين الكبيرتين اللتين تطلان على البحر ، وبانتظار ترتيب أمتعته في الغرفة ، نظر إلى الشاطىء المهجور في تلك الساعة من بعد الظهر ، وإلى البحر غير المشمس الذي كان يعلو ويتقدم بانتظام يضرب الشاطىء بأمواجه الطويلة والمنبسطة .

لا يرى المرء الأشياء وهو لوحده مخلد إلى الصمت كما يراها وهو في المجتمع . في الوقت ذاته الذي تحتفظ فيه بغموض أكثر تذهل النفس أكثر . تصبح الأفكار أكثر وقاراً ، تميل إلى التشوه وتصطبغ بالكآبة على الدوام . إن ما تراه ، ما تلاحظه ، ما كان ليضايقك في المجتمع وأنت تبادل نظرة ، ضحكة ، حكماً ، يشغلك أكثر مما ينبغي ، يتعمق بالصمت ، يتخذ معنى ، يصبح حدثاً ، مغامرة ، انفعالاً . من الانفراد تولد الغرابة ، يولد الجمال في ما ينطوي عليه من جسور وغريب ، تولد القصيدة . ومن الصمت أيضاً ، تولد الاشياء مقلوبة ، مختلة الترتيب ، عبثية ، مدانة . هكذا كانت تشغل بال المسافر باستمرار صورة السفرة ، العجوز المتصابي الرهيب ، ثرثراته ، قصصه عن الصديقة الطيبة ، والغوندولي الخطاف الذي حُرم من ماله . لم تخرج عن نطاق العادي ولم تكن بسبب ذلك مشكلة ، لا بل لم تستدع التفكير ، إلا أنها كانت مع ذلك ذات طبيعة غريبة ، حسبما بدا لأشنباخ الذي كان يثير فيه ذلك التباين الاضطراب . راح يحيي ، في غضون ذلك ، البحر بعينيه ويستمتع بالشعور بالبندقية قريبة منه إلى ذلك الحد . حاد عن الشباك أخيراً ومضى يغسل وجهه ، أعطى

أوامر إلى الخادمة ، وبعد أن أعد لنفسه إقامة مريحة أنزله عامل المصعد ، وهو سويسري ذو بزة خضراء ، بناء على طلبه إلى الطابق الأرضي .

شرب الشاي على المصطبة التي تطل على البحر ، ثم نزل درجات الرصيف وتنزه طويلاً باتجاه فندق إكسلسيور . وفيما كان عائداً رأى أن الوقت حان لارتداء ملابسه لتناول العشاء . وهو ما قام به في ذلك النهار أيضاً ببطء وبدقة لأنه كان معتاداً على العمل أثناء ترتيب هندامه . إلا أنه وصل قبل الوقت قليلاً إلى البهو حيث وجد معظم النزلاء متجمعين ، وبما أنهم لا يعرفون بعضهم بعضاً فقد كانوا يتظاهرون بجهلهم بعضهم للبعض الآخر ، فيما كان انتظار الطعام يقيم علاقة فيما بينهم . تناول صحيفة من على الطاولة ، وجلس على مقعد جلدي يراقب الحضور . لم يكن لحسن الحظ يشبه نزلاء الفندق الذي غادره للتو .

كان ينفتح أفق واسع ، يستقبل ألف شيء وشيء . تسمع لغات الأرض الرئيسية بصوت خافت . كان رداء السهرة، وهو زي كرسته التقاليد ، معتمد في العالم أجمع ، يضم من الخارج

تباينات البشرية جمعاء ، يرجعها إلى نموذج مقبول . كان يُرى أميركيون ذوو وجوه يابسة ومستطيلة ، روس محاطون بعائلتهم الكبيرة ، انجليزيات ، أطفال المان ومربياتهم الفرنسيات . كان يطغى عدد السلافيين على الحضور فيما يتكلم الجالسون قرب آشنباخ اللغة البولونية . جلس البولونيون ، وهم فتية تخطوا التوهم سن الطفولة ، تحت رقابة مربية حول طاولة من أسل الهند . كانت المجموعة تتألف من ثلاث فتيات بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة ومراهق طويل الشعر يقارب الرابعة عشرة من عمره . كان هذا الفتى ذا جمال خارق أذهل آشنباخ . كان شحوب وجهه المحاط بخصلات شقراء عسلية ولطافته الصارمة ، أنفه المستقيم وفم محبب ورصانة معبرة وشبه إلهية ، كل ذلك كان يجعل الناظر إليه يفكر بالنحت الإغريقي في العصر الذهبي ، ورغم كلاسيكية الملامح فقد كان لها سحر خاص وفريد لم يتذكر آشنباخ أنه رأى بمثل كما له من قبل ، لا على الطبيعة ولا في المتحفات . كان يذهله شيء آخر أيضا : مفارقة مقصودة بالطبع بين المبادىء التي يتم وفقاً لها تربية هذا الفتى وإلباسه وتعهده من جهة ، وأخواته من جهة أخرى . أما زينة الفتيات اللواتي كانت كبراهن أصبحت تبدو

امرأة ، فكانت ذات احتشام وجفاف يصلان حد البشاعة . إن فساتينهن المتوسطة الطول ، القرميدية اللون ، بتفصيلها الرصين عن قصد وغير المناسب ، التي لا يضفي عليها البهجة إلا طوق أبيض مقلوب وحسب ، وتجعل المرء يفكر بأزياء الراهبات ، كانت تقيد أجسادهن وتنتزع منها كل رونق . أما الشعر المسحوب إلى الخلف والملصوق بجلدة الرأس فيضفي على وجوههن الطابع الفارغ والتافه لوجوه الراهبات . كان المرء ليشعر بيد الأم عبر كل تلك التفاصيل ، وهي مربية لم يكن يخامرها أن تعامل ولدها بالصرامة ذاتها التي تعامل بها بناتها . بديهي أنه كانت تؤمّن حياة سهلة للفتى ، يحاط بحنان . لم تلامس المقصات يوماً شعره الرائع الذي تشبه خصلاته خصلات نازع الشوك* تنساب على جبهته وأذنيه ، وعلى رقبته أيضاً . كان زي بحري ، تتقاصر أكمامه المنتفخة وتضغط عند المعصم على التمفصل اللطيف ليديه الطفوليتين ، لكن الرشيقتين ، يضفي على القامة الممشوقة بزركشاتها القيطانية وأشرطتها وفتحاتها أمارات ترف وتنميق . كان يجلس في مقعد من أسل الهند ، مظهراً معظم جسده ، ماداً إحدى

---

* تمثال برونزي قديم (م)

ساقيه ، مقدماً حذاءه الدقيق المبرنق ، معتمداً بمرفقه على ذراع المقعد ، واضعاً خده على يده المطوية ، في مزيج من التحفظ والاستسلام ، دون أن يذكر أي شيء فيه بالمظهر المتصلب وشبه المستسلم الذي كان يبدو أن أخواته اعتدن عليه . هل كانت صحته رهيفة ؟ فوجهه يبرز بفوارق* عاجية في الظل المذهب الذي يسدله شعره . أم أنه ولد مدلل جداً ، الولد المفضل الذي يجري إفساده بفعل هوى عابر ؟ كان آشنباخ يرجح ذلك . ليس من فنان لا يشعر باستعداد ملتذ ومنافق لتكريس الظلم الذي يولد الجمال ، للانحناء بود أمام أفضال موزعة أرستقراطياً .

أعلن مدير الخدم بالانكليزية أن العشاء جاهز . شيئاً فشيئاً ، اختفت المجموعات المتشكلة عبر الفرجة المزججة لغرفة الطعام . كان بعض المتأخرين الآتين من البهو ومن المصعد يعبرون . بدأ النزلاء يأكلون ، إلا أن الفتيان البولونيين الجالسين إلى الطاولة الصغيرة في الصالة ظلوا في أماكنهم ، فيما ظل آشنباخ ، المتمترس في مقعده والحاضن بنظره المراهق

* الفارق هنا هو درجة إشراق الألوان (م)

الجميل ، ينتظر معهم .

أخيراً ، أعطت المربية ، وهي امرأة قصيرة ، حمراء الوجه ، بدينة وبورجوازية ، إشارة النهوض . أرجعت كرسيها إلى الوراء ، مقطبة الحاجبين ، لتحية السيدة التي دخلت ، كبيرة ، مرتدية لباساً رمادياً فاتحاً ومزدانة باللآلىء . كان مسلكها بارداً ومتحفظاً . يكشف شعرها المبودر قليلاً وشكل فستانها صرامة تلك المنتديات الاجتماعية حيث يرافق التميز شيءٌ من التَقَويَّة . قد يظنها المرء زوجة موظف الماني كبير . كانت أمارات الترف والنزق لديها عائدة فقط إلى زينتها الغالية ، المؤلفة من أقراط ، ومن عقد ذي ثلاثة صفوف من اللآلىء الضخمة التي تلمع بألق حليبي .

كان الأولاد قد نهضوا : إنحنوا لتقبيل اليدالتي مدتها إليهم والدتهم ، فيما كانت ابتسامتها المتحفظة تشرد على وجه يبرز فيه الأنف ، وينم رغم العناية عن تعب خفيف ، وقد وجهت من فوق رؤوس الأولاد ، وهي تنظر إلى البعيد ، بعض الكلمات إلى المربية باللغة الفرنسية . ثم اتجهت نحو الفرجة المزججة . تبعها الأولاد ، الفتيات اولاً حسب

أعمارهن ، ثم المربية فالفتى أخيراً . إستدار هذا لسبب أو لآخر قبل أن يجتاز العتبة ، ولما لم يكن باقياً هنالك غير آشنباخ ، فإن عينيه ، اللتين بلون الفجر الرمادي ، التقتا عيني المسافر الذي كان يتابع بنظره المجموعة ذاهبة ، ضائعاً في تأمله ، وعلى ركبتيه الجريدة .

لم يكن ثمة بالتأكيد ما هو جدير بالملاحظة بنوع خاص في المشهد هذا . لم يجلس أحد من الأولاد قبل الوالدة ، بل انتظروها ، حيوها باحترام وحافظوا وهم ذاهبون إلى قاعة الطعام على الاشكال المرعية . إلا أن ذلك كله حدث بصورة شكلية جداً ، وكان هناك تناغم في تلك الأشكال ، ذلك العرف ، تلك الوقفة ، إلى درجة أن آشنباخ شعر برعشة غريبة . تأخر لحظة أيضاً ، ثم انتقل بدوره إلى صالة الطعام حيث طلب تحديد طاولته التي لاحظ بحركة أسف خفيفة أنها بعيدة جداً عن طاولة البولونيين .

إنشغل طيلة الوجبة بأفكار مجردة ، ما ورائية ، وذلك بمزيج من العياء والإثارة الدماغية . كان فكره يبحث عن العلاقة الغامضة التي ينبغي أن تصل الخاص بالعام من أجل أن

يولد الجمال البشري ، ثم انتقل إلى مشكلات الفن والاسلوب حتى انتهى إلى ملاحظة أن أفكاره واكتشافاته كانت تشبه إيحاآت الحلم تلك التي تبدو موفقة بصورة واضحة ، وتظهر عند الاستيقاظ سطحية ولا قيمة لها . بقي بعد مغادرة الطاولة وقتاً في الروضة في حركة دائمة ، يجلس هنا ، فهناك ، يدخن ، ينتشق عطور المساء . مضى باكراً لينام ، ثم نام نوماً متواصلاً ، عميقاً ، لكن عامراً بالرؤ ى والأحلام .

لم يكن ثمة في الغداة ما يشير إلى أن الطقس سيكون أفضل . فالريح تعصف من ناحية البر ، وتحت سماء شاحبة مغطاة بالغيوم كان البحر يرتاح ما بين شطآنه الضيقة التي لا لون لها ، كئيباً ، منطوياً على نفسه ومنسحباً إلى الداخل لدرجة كان يكشف معها تتالياً طويلاً للأرصفة الرملية . إعتقد آشنباخ وهو يفتح النافذة أنه يشم الرائحة العفنة للبحيرات الساحلية .

إستولى عليه اضطراب مفاجىء . ومذ ذاك شرع يفكر بالرحيل . حدث ذات مرة قبل سنوات أن وجد نفسه مفجوعاً هنا بالذات بطقس شبيه ، بعد أسابيع ربيعية رائعة ، وقد أحس بالضيق بحيث سارع إلى مغادرة البندقية . ألم يكن

يشعر مجدداً ، كما آنذاك ، بتوعك حمّاوي ، بضغط في الصدغين وثقل في الجفون ؟ إلا أنه أحس أن انتقالاً جديداً إلى مكان آخر أمر غير مرغوب فيه . لكن إذا لم تتغير الريح ، يصبح مستحيلاً أن يبقى هنا . ولمزيد من الأمان لم يفك حقائبه كلياً . ذهب في التاسعة إلى صالة الشاي المعدة للترويقة بين البهو وغرفة الطعام .

كان يسود في تلك الحجرة صمت ديني هو إحدى العلامات المميزة للفنادق الكبرى . فالخدم يقومون بعملهم بخطوات صامتة . لا يكاد يسمع المرء ضجة فنجان أو إبريق شاي ، أو كلمة مهموسة . لاحظ آشنباخ الفتيات البولونيات ومربيتهن في زاوية تنحرف نحو الباب ، على بعد طاولتين من طاولته . كن جالسات يتداولن فيما بينهن إناء مربى وهن منتصبات كلياً ، وشعرهن الأغبر مملس منذ قليل ، يلبسن بزات من القماش الأزرق المنشى ، بأردان قصيرة وأطواق صغيرة بيضاء مقلوبة . إنتهين من فطورهن تقريباً . أما الفتى فلم يكن هناك وظل غائباً .

إبتسم آشنباخ وفكر : « , Allons petit Phéacien. يبدو

أن لك امتيازاً على أخواتك وأنك تتمتع بمزية النوم إلى الضحى » .

وفجأة ردد مستمتعاً :

« أيتها الحلى المتبدلة غالباً ، أيتها
الحمامات الفاترة والمريحة . . »

أفطر متمهلاً ، واستلم بريده من البواب الذي دخل إلى الصالة ممسكاً عمرته بيده ، ثم فض بعض الرسائل وهو يدخن سيكارة . كل ذلك جعله يشهد وصول المتأخر المنتظر على الطاولة الأخرى .

دخل هذا عبر الباب المزجج واقترب من طاولة شقيقاته مجتازاً القاعة الصامتة بانحراف . كانت مشيته ، تماسك نصفه الأعلى ، حركة ركبتيه ، طريقة وضع القدم المنتعلة حذاء أبيض ، كل هيئته ذات رونق غير عادي ، خفيفة جداً ، لطيفة ومعتزة في آن معاً ، وأجمل أيضاً بالحياء الطفولي الذي رفع به عينيه فيما هو عابر ، وخفضهما مرتين لإلقاء نظرة على القاعة . إحتل مكانه وهو يبتسم ، متلفظاً بكلمة مهموسة بلغته اللطيفة

والسلسة . وبعد أن برز جانب وجهه بوضـوح ، لم يتمالك آشنباخ نفسه من الذهول أكثر مما في اليوم السابق ، لا بل من الرهبة حيال الجمال الإلهي حقاً لهذا الفتى الفاني . كان الفتى يرتدي اليوم بذلة خفيفة من القطن المزيّح بالأزرق والأبيض ، الذي يفصله شريط حاشية من الحرير الأحمر على الصدر وحول العنق عن طوق أبيض بسيط . إلا أن الـرأس كان ، كزهـرة متفتحة ، يرتاح بفتنة لا مثيل لها على ذلك الطوق القليل الأناقة في كل حال ، وغير المنسجم مع مجمـل البـزة ـ رأس إيروس* بانعكاسات صفراء لمرمر باروس Paros ، والحاجبان مرسومان بوقار ، فيما يغطي الشعر الصدغين والأذنين ، قاتماً وحريرياً ، تنطلق خصلاته بزاوية مستقيمة نحو الجبين .

ـ عال ، عال ! إستحسـن آشنبـاخ ببـرودة التقنـي التـي يتصنعها الفنانون أحيانـاً للتعبيـر عن إعجابهـم وحماسهـم في حضرة إحدى الروائع . وأضاف متابعـاً حبـل تفكيره : « في الواقع ، لولا أن البحر والرملة ينتظرانني لكنت أبقى هنـا ما بقيت أنت ! » لكن بما أن هذا محال ، فقد اجتاز البهو ، محاطاً

* إله الحب (م)

بمجاملات المستخدمين ، نزل المصطبة الكبرى ومضى مباشرة عن طريق عبّارة الالـواح الخشـبية إلى الشاطـىء المخصص للفندق . فتح له الكابينة ، التي استأجرها ، معلم السباحـة العجوز المنصرف هنـاك إلى أعمالـه حافي القدمـين ، بسروال كتاني وبذلة بحار وقبعة قش ، ووضع له الطاولة ومقعداً على ألـواح المصطبـة الـرملية ، حيث استقـر مرفهـاً على الـكرسي الطويل الذي سحبه نحو مكان أقرب إلى البحر ، على الرمل الأشقر .

كان يثير اهتمامه ويسليه أكثـر من أي وقـت مضى مشهـد الشاطىء ، تلك المتعة اللامبالية والشهوانية التي يجدها المتمدن على ساحل اللانهاية . كان البحر الرمادي والمسطح يفيض حياة بأطفال يتخبطون في الماء وهـم يسبحـون ، بخيالات متنوعـة كانـت ترتـاح على الأرصفـة ورؤ وسهـا مستنـدة إلى أذرعهـا المتصالبة . كان آخرون يجذفـون في حسـكات صغـيرة مطلية بالأحمر والأزرق ، وينقلبون ضاحكين . أمام الصف الطويل للكابينات التي تشبه سطيحاتها فيرندات صغيرة ، كانت تعم الحـركة ، الألعـاب ، كسـل الاجسـاد الممـددة ، الـزيارات والمحادثات ، الأناقة المفرطة ، والأجساد الجريئة في تعريهـا ،

مستفيدة بتلذذ من امتيازات الشاطىء . إلى الأمام ، كان يتنزه البعض على الرمل الرطب والثابت بقمصان حمام بيضاء أو ببذلات واسعة ذات ألوان جذابة . إلى اليمين حصن معقد بناه أولاد صغار مشكوك بسرادقات صغيرة لها ألوان كل البلدان . يركع باعة أصداف وحلويات وثمار ليعرضوا بضاعتهم . إلى الشمال ، أمام إحدى الكابينات المصفوفة عمودياً بالنسبة للكابينات الأخرى وللبحر ، مغلقة هكذا الشاطىء جانبياً ، كانت تخيم عائلة روسية : رجال ملتحون صلبو الأسنان ، نساء لطيفات ومتكاسلات ، fraulein* من المقاطعات البلطيقية جالسة أمام لوحة صغيرة ترسم مشهداً بحريا وهي تطلق صيحات تعجب يائسة . ولدان يبتسمان ببشاعة جذابة . خادمة عجوز تعتمر مدراساً ،** عبدة لها تصرفات خانعة بحنان . كانوا يعيشون هناك في غبطة تامة ، لا ينفكون ينادون الأولاد العصاة والراكضين كالمجانين بأسمائهم ، يمزحون طويلاً ، مستخدمين بعض الكلمات الطليانية ، مع الساخر ـ على ـ

*بالالمانية في النص (م)

** لباس للرأس مصنوع من نسيج خفيف من الحرير والقطن (م)

البارد pince- sans -rire الذي كان يبيعهم سكاكر ، يتبادلون قبلات ، يتلذذون دون أدنى احترام إنساني في تواصلهم الغريزي .

« سوف أبقى إذن » ، فكر آشنباخ . أين في وسعه أن يكون أفضل حالاً . شبك يديه على ركبتيه ثم ترك عينيه تتيهان في أقاصي البحر ، ونظره يفلت ، يغرق ، ينكسر في البخار الرمادي للامتداد القفر . كان لحبه للبحر جذور عميقة : الحاجة للراحة لدى الفنان المضطر للقيام بجهد جهيد ، والذي يعوزه إزاء تطلب الظاهرات المتغير الشكل أن يلجأ إلى أحضان البساطة المفرطة . ميل محظور ـ معاكس لمهمته مباشرة ، وبناء على ذلك مغر للغاية ـ إلى اللامتمفصل ، إلى اللانهائي ، إلى الأبدي ، إلى العدم . إن الراحة في الكمال ، هي حلم من يجتهد لبلوغ الجودة . والعدم ، أليس شكلاً من أشكال الكمال ؟ والحالة هذه ، لما كان يترك أحلامه تغوص في الفراغ ، اجتاز خط شاطىء البحر الافقي فجأة شكل إنساني ، وحين رجع بنظره المنفلت نحو اللانهاية ، رأى المراهق الجميل يمر أمامه في الرمل ، قادماً من اليسار .

كان متحفياً ، على وشــك أن يمشي في الماء ، بســاقيه الرشيقتين العاريتين حتى ما فوق الركبتين . كان يمشي وئيداً ، لكن بخفة واعتزاز ، كما لو كان جد معتاد على الرواح والمجيء حافياً ، واستدار نحو الكابينات القائمة بعـرض الشاطـىء . لكن ما أن لمح العائلـة الـروسية التـي كانـت تنصرف هنـاك لانشغالاتها المعتادة في طمأنينة لطيفة ، حتى مرت سحابة غيظ واحتقار على وجهه . تجهم جبينه ، قلصت شفتيه برطمة حانقة وغضنت أحد خديه ، ثم تقطب حاجباه بعنف بلغ حداً ظهرت معه عيناه تغوصان تحت قوسي الحاجبين ثم تطلقان من خلوتيهما سهام حقد ، بعد أن أصبحتا قاتمتين خبيثتين . أحنى نظره ، أدار مرة أخرى رأسه بما يشبـه التهـديد ثم هز كتفيه بحـركة احتقار مفاجئة وابتعد عن العدو .

مال آشنباخ بوجهه بنوع من اللياقة أو التأثر الناجـم عن الاحترام والحياء ، كما لو لم ير شيئاً . ذلك أن الرجل الحكيم الذي تجعلـه الصدفـة شاهـداً على الوجـد يأنف أن يستخـدم ملاحظاته ، حتـى في عمـق أعماقـه . إلا أنـه كان في فرحـه وانفعاله الشديد يفيض غبطة . تدخل التفاهة الالهية في علاقة

مع الإنسانية ، بفضل تلك العصبية الطفولية الموجهة ضد المشهد الاكثر براءة . إن رائعة ثمينة من روائع الطبيعة المخصصة حصراً لمتعة العيون ، بدت جديرة باهتمام أعمق ، واكتسب وجه المراهق الملفت النظر بجماله رونقاً يسمح بأخذه على محمل الجد رغم صباه .

كان آشنباخ يصغي ، وهو ما يزال مديراً رأسه ، إلى صوت الفتى ، ذلك الصوت الصافي ، الخافت قليلاً ، الذي كان يحاول الإعلان به عن نفسه من بعيد محيياً الأصحاب المنشغلين حول الحصن . أجاب هؤلاء مراراً عديدة وهم ينادونه باسمه أو بأحد أسماء دلاله ، فيما يصغي آشنباخ بنوع من الفضول دون التوصل إلى فهم شيء محدد . كان ذلك مقطعين رخيمين ، ما يشبه « أدجيو Adgio » أو أغلب الأحيان « أدجيو Adgiou » منتهية بـ « أو ou » ممتدة إلى النهاية . أعجبه الصوت . وجد ترخيمه يلبي مرامه ، كرره ، وبعد أن شعر بالاكتفاء ، انشغل برسائله وأوراقه .

أخذ قلم الحبر وواصل كتابة الرسائل ، وهو يضع نشافة السفر الصغيرة على ركبتيه . لكن بعد مرور ربع ساعة ، وجد

من المؤسف أن يبتعد هكذا بروحه عن الحالة الأكثر جدارة بالتذوق الكلي وأن يهملها من أجل انشغال تافه . إطرح الريشة والقرطاس وعاد إلى البحر . وبعد أن جذبته سريعاً أصوات بناة الحصن الفتية استدار لامبالياً إلى اليمين برأسه المتكيء على مسند الكرسي ، للاهتمام بأفعال وحركات أدجيو اللذيذ .

إكتشفه من أول نظرة ألقاها . كان شريط الحاشية الأحمر على صدره يدل عليه من بعيد . فيما هو منشغل مع اولاد آخرين بوضع خشبة عتيقة بمثابة جسر فوق حفرة الرمل الرطبة ، كان يعطي تعليماته بهذا الخصوص بكلمات وإيماءات من الرأس . كان معه هناك عشرة رفاق تقريباً ، صبياناً وفتيات ، بعضهم من عمره وآخرون أصغر منه ، يتكلمون كل اللغات بلا نظام ، البولونية والفرنسية واللغات البلقانية أيضاً . لكن اسمه هو الذي كان يسمع أغلب الأحيان . الجميع ينشدونه ويحيطونه بأمارات الولاء والاعجاب . واحد من اولئك الفتيان ، وهو بولوني مثله ، يدعونه بما يشبه اسم « جاشو » ، قصير وسمين ، ذو شعر أسود مدهون ، كان يبدو تابعه الأول

وصديقه . حين انتهيا من أعمال البناء لذلك اليوم ، ذهبا معاً على امتداد الساحل الرملي متضامين ، والمدعو « جاشو » عانق رفيقه الجميل .

سولت لآشنباخ نفسه أن يهدده بإصبعه : « أما أنت يا كريتوبولس ـ فكر وهو يبتسم ـ فسافر عاماً كاملاً : يلزمك كل هذا الوقت لتتماثل إلى الشفاء » . ثم تروّق عدة ثمار ممتلئة من الفريز الناضج اشتراها من أحد الباعة . صارت الحرارة حادة مع أن الشمس لم تتمكن من اختراق طبقة الضباب التي غطت السماء . كان نوع من الكسل يقيد آشنباخ فيما تتذوق أحاسيسه المعايشة الباهرة والمذهلة للسكينة البحرية . طفق هذا الرجل الرصين والمفكر يبحث ويحاول أن يحزر اي اسم يمكن ان يكون له وقع شبيه بوقع « أدجيو » وكانت تلك المشكلة تبدو له جديرة بشغل تفكيره . توصل أخيراً ، مستعيناً ببعض الذكريات البولونية ، إلى استخلاص أن الامر ينبغي أن يتعلق بـ « تادزيو » وهو اختصار « تاد يوس » الممدود تعجباً « تادزيو » .

كان تادزيو يستحم . وآشنباخ الذي كان أضاعه

اكتشف بعيداً في البحر رأسه وذراعه التي مضى يرفعها للتجذيف . إن البحر مسطح في الاخير على مسافة كبيرة . إلا أن القلق عليه بدأ يساور البعض . كانت أصوات نسائية تناديه من الكابينات ، صارخة من جديد بذلك الاسم الذي بدا يسيطر على الشاطىء كشعار ، ويوحي ، بأحرفه الصوتية اللطيفة والـ« أو » النهائية الممدودة بإلحاح ، بشيء ما حنون ومتوحش في آن معاً : « تادزيو ! تادزيو ! » . رجع ، اجتاز الأمواج راكضاً رافع الرأس ، رافعاً الموجة التي تقاوم ساقيه زبداً . أن نرى هذا الشكل الحي ، اللطيف والقاسي معاً في رجولته الاولى ، يبرز واضحاً في الافق البعيد للسماء والبحر ، ينتصب شبيهاً بوجه إلهي ، ويفلت من الماء فيما شعره يتقطر ، فذلك مشهد يوحي برؤى خرافية ، بما يشبه اسطورة شعرية من العصور الأولى تروي بدايات الجمال وولادة الآلهة . كان آشنباخ يصغي مغلق العينين إلى ذلك الصدى الملحمي المهتز في روحه : فكر مرة أخرى أن الحياة تحلو في ذلك المكان وانه باق هناك .

بعد ذلك بقليل ، كان تادزيو الممدد على الرمل ، الملتف بدثاره الابيض يرتاح من حمامه ، مرخياً رأسه على ذراعه

العارية ، ولم يكن آشنباخ ينسى وهـو يقـرأ بعض صفحـات كتابه أن الفتى ممدد هناك ، حتى ولو لم يركز عليه عينيه ، وأن حركة خفيفـة من الـرأس إلى اليمـين كافية كي يرى المشهـد الرائع . كان يبدو له أنـه هنـاك ليحمـي راحـة الفتـى ، وأن عليه ، في الوقت الذي يهتم فيه بقضاياه الخاصة ، أن يحرس بيقظة لا تكَل المثل الأعلى للإنسـانية الجميلـة الـذي كان عن يمينه ، غير بعيد عنه . كان قلبه ممتلئاً ومضطرباً بحنان أبوي ، بالانعطـاف المنفعـل ، من جانـب من ينـذر عبقريتـه لخلـق الجمال ، تجاه من يمتلك ذلك الجمال .

بعد الظهر ، غادر الشاطىء عائداً الى الفندق ، ومـا أن بلغه حتى أخذ المصعد متجهاً إلى حجرته . بقي فيه طويلاً أمام المرآة متطلعاً إلى شعـره الأشيب ووجهـه المتعـب ذي الملامـح البارزة . هنا تذكر شهرته ، تذكر أن في الشارع عدداً كبيراً من المارة يميزونه وينظرون إليه لصواب كلمته المعصـوم ورونقهـا اللامتناهي . إستعاد كل ما أمكنه تذكره من النجاحات المادية لموهبته ، غير ناسٍ حتى رفعه إلى مصـاف النبـلاء . ثم نزل للطعـام وتغـدى على طاولتـه الصغـيرة في الصالـون . بعـد الطعام ، وفيما كان يدخل في المصعد ، تدافع وراءه في القفص

المتحرك الصغير فتيان أنهوا التوهم كذلك تناول الغداء ، ومن بينهم تادزيو . وقف قريباً من آشنباخ ، قريباً جداً للمرة الاولى ، بحيث أن هذا تمكن ، عوض أن يراه كصورة غير واضحة ، أن ينظر إليه ويفصّله في كل عناصر إنسانيته . وجه أحدهم كلامه إلى الفتى ، وفيما يجيب مبتسماً بلطف لا يوصف خرج في الطابق الأول متراجعاً وغاضاً نظره . فكر آشنباخ أن الجمال يولد الحياء وعمّق تلك الفكرة باحثاً عن سبب ذلك . إلا أنه لاحظ أن قواطع تادزيو ليست دون عيب ، فهي محززة قليلاً ، ينقصها ميناء ذوي الصحة المتينة ، وتُبرز تلك الشفافية المميزة سريعة العطب التي ترافق اليرقان أحياناً . « إنه رهيف جداً ، معرض للمرض ، ـ فكر آشنباخ ـ ومن المحتمل أنه لن يعيش طويلاً » . صاحب تلك الفكرة نوع من الشعور بالرضى أو بالهدوء الذي تراجع عن البحث عن تفسيره .

أمضى ساعتين في حجرته ، وقصد بعد الظهر البندقية في قارب بخاري كان يقوم بالرحلات البحرية عبر البحيرة الساحلية النتنة . نزل في سانت مارك ، تناول الشاي في الساحة ، وقام بعد ذلك بجولة عبر الشوارع ، حسب البرنامج الذي كان وضعه لإقامته في تلك المدينة . إلا أن هذه النزهة هي

التي أدت إلى انعطاف كامل في مزاجه وقراراته . كانت حرارة ثقيلة ومقرفة تسيطر في الأزقة . وكان الجو غليظاً إلى حد أن الروائح التي تفوح من المساكن والمخازن والمطاعم الحقيرة ،

أبخرة الزيت ، نفحات العطور وأشياء اخرى كثيرة كانت تبقى بكميات ولاتتبدد . يبقى دخان السيجارة في مكانه ولا يبتعد إلا ببطء . كانت حركة الجمهور المستمرة في المعبر الضيق تزعج المتنزه بدل أن تسليه . بقدر ما كان يتقدم كان يحس بتعذيب السقوط في الحالة الكريهة التي يمكن للهواء البحري وريح الشلوق مجتمعين أن يقودا إليها ، حالة تهيج وإنهاك ممتزجين . تصبب من مسامه عرق قلق . لم يعد يرى ، ضاق صدره ، صار يرجف من الحمى ، وتنبض شرايينه تحت أعلى رأسه . هرب من الشوارع التجارية حيث الجمهور واجتاز الجسور ليبلغ أزقة الأحياء الفقيرة . أزعجه هنالك الشحاذون ، وكانت روائح القنوات الكريهة تقطع تنفسه .

جلس في ساحة هادئة ، أحد تلك الامكنة التي تعطي انطباع نسيان وعزلة مسحورة وتكثر في قلب البندقية ، جلس ليرتاح على مثابة بئر ، مسح جبينه وأدرك أن عليه مغادرة البلاد .

جرى البرهان للمرة الثانية ، والآن دون جدال ، ان تلك المدينة ضارة جداً بصحته ، على تلك الدرجة من الحرارة . إن الاصرار رغم ذلك على البقاء يبدو غير معقول ، واحتمال انقلاب مفاجىء للريح غير أكيد إطلاقاً . كان ينبغي اتخاذ قرار سريع . يستحيل أن يعود إلى بيته منذ الآن : لم يكن مسكنه معداً للصيف ولا للشتاء. إلا أن البحر والشاطىء لم يكونا موجودين فقط في البندقية . يمكن العثور عليهما في أمكنة أخرى بدون ملحق البحيرة الساحلية وروائحها النتنة .

تذكر شاطئاً صغيراً على مقربة من تريست امتدحه بعضهم أمامه . لماذا لا يقصده ؟ ودونما إبطاء حتى يكون للتغيير الجديد لمقر الاصطياف معناه ؟ إعتبر المسألة محسومة ونهض . أخذ غوندولاً في محطة المراكب اللاحقة نقله إلى سانت مارك ، تابعاً متاهة الزوارق الغامضة ، محاذياً العمارات ذات الشرفات الانيقة التي تلاصقها أسود منحوتة ، دائراً حول زوايا جدران لامعة ، متخطياً واجهات قصور كئيبة تعكس لافتات عريضة في اضطراب الامواج . لم يبلغ المكان المقصود دون عناء ، ذلك ان الغوندولي المتواطىء مع بائعي دنتيلا ونافخي زجاج ،

كان يحاول في كل مكان أن ينزله لزيارة محلات والتسوق منها ، وفي كل مرة كان يشرع عبور البندقية العجيب بممارسة سحره . كانت المركنتيلية الجشعة لملكة البحار المخلوعة تأتي بالحاح كريه لتبدد نشوة الخيال .

اعلن آشنباخ فور عودته ، وحتى قبل أن يتعشى ، أن ظروفاً طارئة تضطره للرحيل في الصباح الباكر . أبدى القائمون على الفندق أسفهم وصفوا حساباتهم معه . أما هو فتعشى وأمضى السهرة الفاترة يقرأ الصحف على كرسي هزاز فوق المصطبة خلف الفندق . أعد قبل ان يأوي إلى الفراش حقائبه بكل عناية .

أثار احتمال التغيير ذلك اضطرابه ، وكان نومه رديئاً . حين فتح النافذة صباحاً ، كانت السماء ما تزال مغطاة بالغيوم ، إلا أن الهواء بدا منعشاً ، وقد شعر حالاً بالاسف يخامره . ألم تكن تلك الإجازة التي أعطاها ناجمة عن طيش وخطأ ، نتيجة حالة لا مسؤ ولية مرَضية ؟ لو أنه أجل قراره قليلاً ، لو أنه ، بدل اليأس دفعة واحدة ، قبل احتمال تكيف مع المناخ البندقاني أو تحسن في الطقس ، لكان له الآن أمل ببعد ظهر على الشاطىء

شبيهٍ ببعد ظهر اليوم السابق ، عوض الإثارة والارتباك . تأخر كثيراً ! كان عليه أن يستمر في إرادة ما أراده البارحة . إرتدى ثيابه ونزل في الثامنة إلى الطابق الارضي ليتناول الفطور .

لم يكن هناك أحد بعد في غرفة الطعام لحظة دخوله . إلا ان القاعة امتلأت شيئاً فشيئاً فيما ينتظر على طاولته الفطور المطلوب . بينما كان يشرب الشاي ، رأى الفتيات البولونيات يدخلن تصحبهن مربيتهن : قصدن طاولتهن في الزواية إلى جانب النافذة ، رصينات ، نديات ، وأعينهن محمرة بعد بفعل الزينة الصباحية . جاء البواب بعد ذلك حالاً يخطره ، وهو يمسك قبعته بيده ، انه آن أوان الرحيل . كانت السيارة تنتظره لتنقله مع مسافرين غيره إلى فندق إكسلسيور من حيث يقوم الزورق الآلي بنقل المسافرين إلى المحطة عبر القناة التابعة للشركة . آن الأوان . . . إلا أن آشنباخ وجد ان لا شيء يدعو للاستعجال . كانت ما تزال باقية ساعة كاملة حتى موعد انطلاق قطاره . إغتاظ من عادة الفنادق أن تصرف باكراً جداً نزلاءها الذين يرحلون ، وأفهم البواب انه يرغب في تناول الفطور بهدوء . إنسحب الرجل على مضض ليعود بعد ذلك

بخمس دقائق . يستحيل على السيارة ان تنتظر وقتاً أطول . « إذن ! فلتمض بحقيبتي » أجاب آشنباخ نافذ الصبر . أضاف أنه سيستقل في الوقت المناسب الزروق الآلي وطلب أن يترك له تدبير أموره بنفسه . إنحنى المستخدم منصاعاً . أما آشنباخ ، الذي سر لكونه تخلص من الإلحاحات المزعجة ، فأنهى فطوره على مهل ، حتى أنه أرسل الخادم في طلب جريدة . كان وقت الرحيل قد حان حقاً حين نهض أخيراً . ولقد شاءت الصدفة أن يدخل تادزيو في اللحظة ذاتها عبر الباب الزجاجي .

كان متوجهاً إلى طاولة ذويه حين صالب النزيل المتأهب للرحيل . غض عينيه بتواضع ، أمام ذلك الرجل الاشيب ذي الجبهة العالية ، ليعود فيفتحهما حالاً ، وفقاً لعادته اللطيفة ، ويرفعهما واسعتين وحنونين نحوه ، ثم عبر سريعاً . وداعاً يا تادزيو ! فكر آشنباخ في سره ، وأضاف بصوت خافت : « باركك الله ! » . باشر بعد ذلك بإجراآت الرحيل ، وزع البقشيش ، تقبل تحيات الوداع من المدير الصغير ذي الردنغوت الفرنسي والسلوك الرصين ، وغادر الفندق على قدميه ، كما

سبق وقدم إليه ، يتبعه الخادم حاملاً حقائب اليد ، ماضياً عبر الممر الأبيض المزدان بالاشجار المزهرة باتجاه رصيف الـركوب الواقع في الجانب الآخر من الجزيرة . وصله واتخذ له مكاناً . . أمـا الباقـي فكان طريق الجلجلـة ، نزولاً في كل هاويات الأسف .

كان ذلك هو العبور المألوف مجتازاً البحيرة الساحلية عبر القناة الكبرى ، مروراً امام سانت مارك . جلس آشنباخ على المقعد نصف الدائري في المقدمة ، معتمداً بذراعه على المسند وقد وضع يده على عينيه يحميهما من أشعة الشمس . ثم تخطى الحدائق العامـة . إنفتحـت البيازيتـا مرة أخـرى في روعتهـا الاميرية لتختفي حالاً ، ثم ظهر صف القصور الفخيم . وعند منعطف القناة امتد عقد جسر ريالتو المرمري الرائـع . تمـزق قلب المسافر لدى ذلك المشهـد . كان يتنشق الآن عميقـاً وفي انعطاف أليم جوَّ المدينة هذا ، تلك الرائحة النتنة للبحر الراكد التي جعلته يستعجل الرحيل . هل يمكن أن يكون لم يعرف ، أن يكون نسي كم قلبـه متعلـق بكل هذا ؟ تسـاءل في ذلك الصباح بأسف غامض وشك خفيف إذا كان لقراره ما يبرره .

تحول ذلك الشك الآن حزنـاً ، ألماً حقيقياً ، ضيقـاً مريراً إلى درجة أن عينيه اغرورقتا مراراً بالدموع ـ كيف تخيلها على تلك الحال ؟ ما كان يشق عليه التسليم به ، ما كان يبدو له أحياناً غير مقبول إطلاقاً ، فهو فكرة أنه لن يرى البندقية بعد الآن وأن ذلك الرحيل وداع نهائي . بما أنه لاحظ للمرة الثانية أن تلك المدينة تمرضه ، بما أنه كان يرى نفسه للمرة الثانية مضطراً أن يغادرها سريعاً ، فقد كان عليه أن يعتبرها منذ ذلك الحين محل إقامة مستحيلاً ، ممنوعاً ، يتخطى قواه ، من الجنـون العـودة إليه مرة ثانية . كان يشعر أنه إذا ما سافر الآن فسـوف يمنعـه الخجل والكبرياء من أن يرى مرة أخرى المدينة المحبوبة التي خانته بنيته مرتين حيالها ، وإذا بذلك الخلاف ، ذلك الصراع بين ميل في الروح من جهة وقوى الجسد من جهة اخرى ، يبدو فجأة لهذا الرجل الكهل خطيراً وشاقاً ، والهزيمة البدنية مذلة وغير مقبولة ، إلى درجة لم يفهم معها الخضوع الطائش الذي قرر البارحة ان يستسلم له ويقبل به دون مقاومة جدية .

إلا أن المركب البخاري اقترب من المحطة ، وعظم الالم والحيرة إلى حد الاضطراب الشديد . وسط ذلك التمزق الذي عاناه ، بدت له استحالة الرحيل وفي الوقـت ذاتـه استحالـة

العودة إلى الوراء . في حالة التمزق تلك دخل المحطة . كان الوقت متأخراً جداً ولم يعد للمسافر دقيقة يضيعها إذا أراد ركوب القطار . إنه يريد ولا يريد . إلا أن الوقت يضغط وينخس . أسرع للاستحصال على بطاقة ، وفتش حوله في جلبة القاعة الواسعة عن مستخدم الشركة الفندقية . جاء هذا وأعلن ان الحقيبة الضخمة قد سجلت على أساس نقلها إلى كوم . إلى كوم ؟ كانت النتيجة بعد تبادل سريع للشروح ، للاسئلة الغاضبة والاجوبة المرتبكة ، أن الحقيبة التي جرى الخلط بينها وبين رزم أخرى تم إرسالها من مكتب إرسال فندق إكسلسيور في اتجاه خاطىء كلياً .

وجد آشنباخ صعوبة في الحفاظ على الهيئة الوحيدة المناسبة ، نفخ صدره فرح مجنون ، سرور لا يوصف ، وهزه في مثل تشنج . أسرع المستخدم لاستيقاف الحقيبة ، إذا أمكن ، إلا أنه عاد كما كان متوقعاً بخفي حنين . أعلن آشنباخ حينئذ أنه لا يرغب في المضي بدون أمتعته وأنه قرر العودة إلى فندق الحمامات ينتظر فيه عودة حقيبته . سأل إذا كان الزروق الآلي التابع للشركة واقفاً أمام المحطة ، فأكد الرجل أنه راس أمام الباب . أجبر بطلاقته الطليانية الموظف المولج بقطع التذاكر

أن يستعيد التذكرة التي سبق وقطعها ، وأقسم طالباً الإبراق وعدم إهمال شيء من اجل استعادة الحقيبة في مهلة قصيرة بأي ثمن ، وهكذا حصل ذلك الشيء الفريد ، أي رؤ ية المسافر وهو يجتاز بعد عشرين دقيقة من وصوله ، القناة عائداً إلى الليدو .

يا لها من مغامرة غريبة لا تصدق ، مذلة وذات طرافة خيالية : أن يعود المرء بفلتة من فلتات القدر إلى الأماكن التي انفصل عنها إلى الأبد بحزن عميق ، ويجد نفسه فيها مجدداً قبل أن تنصرم ساعة ! كان الزورق الصغير العديم الصبر يطير إلى هدفه ، والزبد يعلو مقدمته ، وهو يتلوى برشاقة مهرج بين الغوندولات والبوابير ، فيما يخفي راكبه الوحيد تحت ظاهر انزعاج مستسلم الحماس المنتصر الذي يلطفه قلق شقي أفلت من المنزل الوالدي . كانت ضحكة داخلية تدغدغه باستمرار لدى التفكير بذلك الحظ السيء الذي ـ كما كان يقول في سره ـ ماكان يمكنه أن يصيب بصورة أكثر مراعاة واحداً من المحظوظين . ينبغي أن يقدم بعض التفسيرات ـ فكر في سره ـ أن يواجه انظاراً مشدوهة ، ثم يترتب كل شيء . لقد تم تجنب مصيبة ، إصلاح خطأ مبين ، وكل ما اعتقد انه يتخلى عنه ،

كان يقدم إليه مجدداً وسوف يمتلكه حسب الطلب .

باختصار ، هل كان ذلك وهماً سببته سرعة المركب أم ـ لحسن الحظ ـ الريح البحرية التي تعصف الآن عكس ما كان متوقعاً . كانت الامواج تضرب الجدران المسلحة بالباطون للقناة الضيقة المحفورة عبر الجزيرة حتى فندق إكسلسيور . كانت في انتظاره سيارة أقلته مباشرة إلى فندق الحمامات عبر الطريق المطلة على البحر المزبد . جاء المدير الصغير المشورب بحلته السموكينغ ونزل درج المدخل للسلام عليه .

عبزبنبرة ملاطفة مرهفة عن أسفه للحادث الذي قال عنه إنه جد مزعج له وللفندق ، لكنه أيد قرار آشنباخ أن ينتظر هنا استعادة حقيبته .

صحيح أن حجرته أعطيت لأحد النزلاء ، إلا أن ثمة واحدة أخرى لا تقل عنها جودة رهن تصرفه . « حظ سيء أيها السيد » ، قال صبي المصعد السويسري مبتسماً أثناء الصعود . وهكذا أعيد الجندي الفار إلى حجرة مشبه مماثلة للسابقة ترتيباً وتأثيثاً .

جلس آشنباخ ، بعد أن صف محتوى حقيبة سفره على مقعد قرب النافذة المفتوحة ، مرهقاً تماماً وزائغاً بفعل إثارة ذلك الصباح الفريد . إصطبغ البحر بالخضرة وبدا الجو أخف وأنقى والشاطىء بكابيناته وزوارقه أكثر تلوناً ، مع أن السماء بقيت رمادية . نظر إلى الخارج ويداه مضمومتان بين ركبتيه ، مسروراً لكونه هناك مجدداً ، لكن هازاً رأسه في الوقت ذاته وهو يفكر بتقلبه وجهله حقيقة رغباته . بقي ساعة في ذلك الوضع ، مرتاحاً لأحلام يقظة غامضة . لمح حوالي الظهر تادزيو في حلة من نسيج مضلع بشريط حاشية أحمر ، عائداً من البحر إلى الفندق عبر حاجز الشاطىء والجسيرات الخشبية . عرفه آشنباخ حالاً ، من مكانه العالي ، قبل أن يركز نظره عملياً عليه ، وكان على وشك أن يفكر : عجباً ! تادزيو ، هاعدت انت أيضاً ! إلا أنه شعر في الوقت ذاته بذلك الترحيب التافه يسقط في الصمت إزاء إعلان قلبه الصادق ، شعر بالسعير في أوردته ، بفرح وألم روحه ، وفهم أن تادزيو هو الذي جعل رحيله على تلك الدرجة من الصعوبة .

بقي جالساً بصمت ، في ذلك المكان الذي لم يكن أحد يستطيع أن يراه فيه من تحت ، وفحص ضميره . كانت ملامحه قد

انتعشت ، إرتفعت أجفانه وتوترت شفتاه في ابتسامة تعني الانتباه والفضول المرهف . رفع رأسه بعد ذلك ، وبذراعيه اللتين كانتا تتدليان دون حراك من جانبي المقعد ، مثل ببطء الحركة التي تضم وترفع ، مديراً الكفين إلى الأمام ، كما لتصوير عملية فتح الذراعين وبسطهما في حركة ترحيب يقظ واستقبال هادىء .

٤

ألآن وفي كل يوم ، كان الإله ذو الوجه المضطرم ، يقود وهو عار كدريجته* الملتهبة عبر أجواز السماء ، فيما يتطاير شعره الذهبي في الريح الشرقية الهائجة . يمتد بياض حريري باهر على الاماكن البعيدة من البحر وعلى الموج الصاخب الكسول . أما الرمل فيلمع . كانت أقمشته أشرعة بلون الصدأ ممدودة أمام الكابينات ، تحت الأثير اللازوردي ذي الاهتزازات الفضية ، وعلى الظل الذي كانت تلقيه كان المستحمون يمضون ساعات الصباح . إلا أن السهرة لم تكن أقل إمتاعاً فيما تفوح العطور الشذية من نباتات المتنزه، وتنجز مجموعات النجوم دوارتها الفخيمة في الأعالي ، ويصعد همس البحر الغائص في الليل بهدوء نحو الأرواح يسر إليها بمخبآته الغامضة . كانت تلك المساءات تحمل في ذاتها الوعد الفرح بنهار جديد من شمس وأوقات فراغ ، منظم بيسر ومزين

* مركبة بدولابين تجرها أربعة جياد كان القادة الرومان المنتصرون يعودون بها (م)

بالإمكانات التي لا تحصى والتي تجمعها صدفة فاتنة في متناول اليد .

لـم يكن النـزيل الـذي استبقـاه هنـاك حظ سيء مؤ ات جداً ، ليرى في رجوع أمتعته سبباً لرحيل جديد . لقد خضع خلال يومين لبعض الحرمانات وكان يحضر لتنـاول وجباتـه في القاعة الكبرى بثياب السفر . ثم حين أنزلت الحقيبة الثقيلـة التائهة في غرفته أخيراً ، أفرغ محتواها بدقة ، وملأ به الخزانة والجوارير ، مصمماً على البقاء فترة غير محدودة ، راضياً لأن في وسعه قضاء الساعات على الشاطىء بثياب حريرية خفيفـة ، والظهور عند العشاء بثياب السهرة على الطاولة المحفوظة له .

أصبحت تفتنه رفاهية ذلك الوجود المنتظـم . سرعـان ما سحرته هدهدة تلك الحياة اللطيفة اللامعة . أية إقامـة فريدة هي تلك التي تجمع مفاتن دارمريحة على شاطىء في الجنوب إلى الجيرة المباشرة والمألوفة للمدينـة الغريبـة والعجيبـة ! لم يكن آشنباخ يبحث عن المتع . إذا كان الأمـر يتعلـق بالتعـطيل ، بالاستسلام للراحة ، بالانصراف إلى اللهو ، فسرعان ما أحس بقلق وقرف كانا يعيدانـه إلى الجهـود السـامية ، إلى العبـودية

المقدسة والصارمة للعمل اليومي . وحـده ذلك المكان ، كان يسحـره ، يبـدد إرادتـه ، يغمـره بالسعـادة . أحيانـاً عنـد الضحى ، تحت خيمة كابينتـه ، وهـو يسرح بصره في البحـر اللازوردي الحالم ، أو خلال الليل الفاتر ، متكئاً على مساند الغوندول الذي يعيده من ساحـة سانتمارك حيث توقف طويلاً إلى الليدو حيث ينـزل ، تحـت ضياء السماء المنجمـة ، فيما تنطفىء خلفه الأضواء البراقة وأنغام السيرينادا الذابلة ، كان يتذكر دارته الجبلية ، مسرح كفاحه إبان الصيف ، حيث كانت تنزل الغيوم عبر بستانه ، وتطفـىء عواصف رهيبـة في المسـاء أضواء المنزل ، وحيث كانت الغربان التي يتولى إطعامها تدور مرعوبة في ذرى أشجار الصنوبر البري . كان يشعر أحيانا إذ ذاك أنه ينتقل إلى منطقـة فردوسية على حدود الارض ، ثمـة حيث تُعَدُّ للناس حياة غبطة ، حيث لا ثلج ، لا صقيع ، لا عواصف ولا أمطار مدرارة ، لكن حيث يترك أوقيانس عذوبة نفسه اللطيفة تهـب ، وتنصرم الايام في أوقـات فراغ لذيذة ، دون هم أو جهد ، منذورة كلياً للشمس وعبادتها .

كان آشنباخ يرى تادزيو كثيراً ، باستمـرار تقريبـاً . إن ضيق المساحة وطريقة استخدام الوقت المفروضـة على الجميع

كانا يجعلان المراهق الجميل يتواجد طيلة النهـار قربـه ، خلا انقطاعات نادرة . كان يراه ، يلتقيه في كل مكان ، في الطابق الارضي من الفندق ، على متن المركب الذي يقوده ، والنسيم العليل يداعبه ، من الشاطىء إلى المدينـة إلى الشاطـىء ، في الساحة الرائعة ، وغالباً أيضاً في الشوراع والأزقة حين يؤ اتيه الحظ . إلا أن الصباح على الشاطـىء هو الـذي كان يقـدم له بانتظام مناسب جداً فرصة مديدة للاستغراق في دراسة خاشعة للظهور اللطيف . لا بل إن انتظام السعد ومؤ اتـاة الظـروف المتجددة يومياً كانا يطفحان كيل غبطتـه وبشاشتـه ، يجعـلان إقامته جد عزيزة على قلبه ، ويتركان الأيام الجميلـة تتتالى في تسلسل على أفضل ما يكون من الانتظام .

كان ينهض باكراً جداً كما العادة حين تهمزه الحاجـة الى العمل ، وكان بين أول من يصلون الشاطـىء ، حـين تكون الشمس ما تزال لطيفة والبحر الباهر ببياضه غائصاً في أحلامه الصباحية . يحيي حارس الحاجز ببشاشة ويلقي تحية أليفة على ذلك المتشرد ذي اللحية البيضاء الذي أعد له محله ، مد قماشته السمراء ، وسحـب أثـاث الكابينـة إلى المصطبـة ، ثم يأخـذ مكانه . تمر ثلاث أو اربع ساعات يشعر أنها ملـكه ، يسعـد

خلالها برؤ ية تادزيو ، فيما تتخذ الشـمس الطالعـة في السماء حدة مرهوبة ، وتقتوتم زرقة البحر أكثر فأكثر .

كان يراه آتيا من جهة الشمال ، على امتداد الشاطـىء ، ينبثق من بين الكابينات خلفه ، أو يلاحظ أحياناً بغتة ، ليس بدون انفعال مغتبط ، أنه فاتته لحظـة وصـول المراهـق الـذي أصبح الآن هناك ، بزي الاستحمام الأزرق والأبيض ، لباس الشاطىء الوحيد لديه الآن ، والذي عاد إلى انشغالاته المعتادة في الشمس والرمل وإلى حياة العبث المحبب والبطالة الهائجـة تلك التي كانت في الوقت ذاته لعباً واستراحة ، متعة تسـكع وتخبط في الوحل واستخدام للرفش ، مطاردة وإمساك ، سباحة وتمدد . إلا أن السيدات الجالسات على المصطبـة كن يراقبنـه ويناديـنه ، يدوي صوتهن باسمه : « تـادزيو ! تادزيو » وكان يهرع إليهن بحركات إيمائية ، يقص عليهن مغامراته ويريهـن صيده : أصفاداً ، أحصنة بحر ، ميدوزات* وسلاطعين تتقـدم جانبياً بقفزات .

لم يكن آشنباخ يفهم كلمة مما يقول ، ربما الأشياء الاكثر

* حيوانات هلامية بحرية تضيء ليلاً .

تفاهـة . إلا أن ذلك كان يرن كميلـوديا حنـون وغامضـة في أذنيه . هكذا لان الفتى يتكلم لغة أجنبية ، يكتسـب كلامـه قيمة الموسيقى . كانت شمس مجيدة تنشر عليه ضوءاً باذخاً ، ويشكل أفق البحر السامي على الـدوام خلفية اللوحـة ويبـرز جمالها .

سرعان ما أصبح المتأمل يعرف كل خطٍ وكل مسلكٍ لذلك الجسد المعروض بتلك الدرجة من الحرية ، بوضوح على تلك الدرجـة من القـوة . كان يحيي بفـرح متجــدد دائماً كلاً من الكمالات التي أصبحت مألوفـة لديه ، ولـم يكن ينتهـي من الإعجاب بها بشهوانية حنون . كان ينادى الفتـى لتحية زائـر يسلم على السيدات أمام الكابينة . فيتراكض ، خارجاً أحياناً من بين الأمواج ، مبللاً تماماً ، يرفع شعره عن وجهه ، وفيما يمد يده واقفاً على ساق بينما القـدم الأخـرى تكاد تلامس الأرض برؤوس الاصابع ، يدور بجسده بحركة مطواعة ذات روعة لا متناهية ، حركة انتظـار أنيقـة ، ارتبـاك محبـب ، رغبـة في الإعجاب تأدية لواجب رجل شريف . كان ممدداً على الأرض في مرار أخرى ، وصـدره ملفـوف بقميص الحمام ، فيما ذراع

منحوتة بلطف ترتفق الرمـل ، والذقـن في باطـن اليد . كان المدعو « جاشو » مقرفصاً إلى جانبه يلاطفـه ، ولا يمـكن تخيل شيء أكثر سحراً من ابتسامة العينين والشفتين التي كان الأمير الصغير يرفع معها نظره نحو متملقه المتواضع . أو من رؤ يته واقفاً على شاطىء البحر وحيداً ، بعيداً عن أقاربـه ، وقريبـاً جداً من آشنبـاخ ، مسـتقيماً ويداه مصلبتـــان خلف عنقــه ، يتأرجح ببطء على رؤ وس الاصابع ، ويغيب في أحد أحـلام اليقظة ، فيما تهرع موجات صغيرات تغسـل أصابـع رجليه . كان شعره العنبري يسترسل ضفائـر رقيقـة على صدغيه وعلى امتداد عنقه ، وتجعل الشمس الزغـب يلمـع ما بـين عظمـي الكتفين . يظهر ارتسام الأضلاع اللطيف وتساوق الصدر عبر الغلاف الملتصق بالتجويف الصدري . كان الإبطان ما يزالان أملسين كإبطي تمثال ، وباطن الركبتين لماعاً تجتازه شبكة أوردة مزرورقة يبـدو باقـي الجسـم إزاءهـا مصنوعـاً من مادة أكثـر ضياء .

أي نظام ، أي دقة فكر تعبر عن نفسهـا في ذلك الجسـم المديد الكامل ذي الجمال الفتي ! لكن ألم تكن الإرادة الصارمة

والنقية ، التي استطاع عملها الغامض أن يلد هذا العمل الفني الإلهي ، معروفة لدى فنان كآشنباخ ، ألم تكن مألوفة لديه ؟ ألم تكن تلك الإرادة تملك فيه أيضاً ، حين يستخلص من الكتلة المرمرية للغة ، وهو ممتلىء بشغف واع ، الشكل الخفيف الذي ظهرت له رؤياه والذي قدمه للناس تمثال جمال فكري ومرآة له ؟

تمثال ومرآة ! عانقت عيناه الطيف النبيل الذي كان ينتصب هناك على ضفة الشفق ، واعتقد بانخطاف مستثار أنه فهم بتلك النظرة جوهر الجمال ، الشكل من حيث هو فكر إلهي ، الكمال الوحيد والصرف الذي يعيش في الروح ، والذي كانت صورة إنسانية عنه قائمة هناك كرمز صاف ومحبب يفرض العبادة . كانت تلك هي النشوة! إستقبلها الفنان الشائخ دون تردد ، وبشراهة . إشتغل خياله ، وغلت أعماق ثقافته ، فجرت ذاكرته أفكاراً قديمة جداً ، منقولة كأساطير عتيقة إلى شبابه ، لم يؤججها هواه حتى ذلك الحين أبداً من جديد . أليس مكتوباً أن الشمس تحرف انتباهنا عن الاشياء الذهنية إلى الأشياء المادية ؟ إنه يُطيش - حسبما كتب الفيلسوف

الإغريقي ـ يسحر الفطنة والذاكرة بصورة تنسى معها الـروح الملتهية وضعها الحقيقي وتتعلـق بأجمـل الأشياء التـي تضيئهـا الشـمس ، بحيث لا تجـد فيما بعـد القـوة على الارتفـاع إلى اعتبارات أسمى إلا بعون الجسد . كان الإله حب ينافس في الحقيقة علماء الرياضيات الذين يعرضون للأولاد قليلي الموهبة صوراً ملموسة لأشكال مجـردة : كذلك فإن اللـه يستخـدم ، ليجعلنا نرى ما هو مفارق للمادة ، شكل المراهقة ولونها الذي يزينه ، ليجعله أداة ذكرى ، بكل إشعـاع الجمال ، ويحـدث هكذا ونحن ننظر إليه أن نلتهب بأمل أليم .

هكذا كان يفكر وسط حماسه ، وتلك هي العواطف التي كان في متناولها . نسجت له نشوة البحـر والشـمس المحترقـة صورة خلابة . شاهد الدلب القديم غير بعيد عن أسوار أثينا ، تلك الأفياء المقدسة المفعمة بشذا الجنيبات الزاهـرة ، المزينـة بالنذور والتقادم التقية على شرف الحوريات وأشيلوس . كان الجدول الصافي يجري تحت الشجرة ذات الأغصان الواسعة ، في مجرى حصى لماع ، فيما تغني الزيزان أغنيتها الحادة . لكن على العشب المنحدر بتؤدة ، حيث يمكن إبقاء الرأس مرفوعاً

فيما الجسم نائم ، كان رجلان متمددان ، محتميان هنالك من حرارة النهار : أحدهما مكتهل وبشع ، والآخر شاب وجميل ، الحكمة قرب الروعة . وبمداعبات ونكات مغرية ، كان سقراط يعلم تلميذه فيدروس حول الرغبة والفضيلة . كان يحدثه عن الانفعال الغامض الذي يفاجىء الإنسان الحساس حين تبصر عيناه رمزاً للجمال الأبدي . يكلمه على شهوات الدنيوي والخبيث الذي ليس بوسعه تصور الجمال عندما يرى صورته ، والذي ليس قادراً على الاحترام . يكلمه على القلق الديني الذي يشعر به رجل النخبة لدى ظهور وجه إلهي ، جسد كامل ، يظهره مرتجفاً ، هائجاً ، يكاد يجرؤ على النظر ، كله احترام لمن يملك الجمال ، مستعداً للتضحية في سبيله كما في سبيل تمثال ، لو لم يخش أن يعتقده الناس مجنوناً . ذلك أن الجمال ، يا صديقي فيدروس ، هو وحده محبب ومرئي في آن معاً . إنه ـ ولتصغ جيداً ـ هو الشكل الوحيد لما يفارق المادة الذي بوسعنا التقاطه بالحواس والذي يمكن لحواسنا أن تتحمله . ماذا عسانا نصير لو حدثت الأمور على غير هذا المنوال ، وإذا أراد الإلهي ، العقل والفضيلة والحقيقة أن تظهر لحواسنا ! أليس صحيحاً اننا كنا لنصبح معدومين وذائبين

حباً ، كما حدث لسيميلي في غابر الزمان أمام وجه زوش ؟ هكذا الجمال هو الطريق التي تقود الإنسان الحساس إلى الروح ، فقط الطريق ، وسيلة وحسب ، يا صغيري فيدروس . . ثم عبر عما كان لديه ليقوله من أكثر الأشياء حذاقة ، الغاوي المحتال ، يعني أن من يحب أكثر ألوهة من المحبوب ، لأن الله موجود في الأول ، لكنه غير موجود في الثاني ، وهي ربما الفكرة الأكثر حناناً والأكثر سخرية التي جرى يوماً تصورها والتي ينبثق منها كل الخبث ، ولذة الرغبة الأكثر خفاء . إن الفكرة التي تستطيع أن تصير كلها شعوراً ، ألشعور الذي بوسعه أن يصبح كله فكراً ، يصنعان سعادة الكاتب . إن الفكرة المستولية على القلب ، والشعور المرتفع الى الدماغ ، اللذين كانا ينتميان الى الحالم المتوحد ويطيعانه في ذلك الحين ، كانا شبيهين : كان يدري ، يشعر ان الطبيعة ترتجف لذة حين ينحني الفكر كتابع أمام الجمال . إمتلكته فجأة رغبة في الكتابة . يقال إن إيروس يحب البطالة حقاً ولم يخلق إلاها . لكن إثارة ضحيته كانت عند ذلك الطور من الأزمة متجهة نحو الانتاج . لا تهم المناسبة . إن تحقيقاً حول إحدى المشكلات الكبرى الحارقة للحضارة والذوق جرى إطلاقه في

العالم الثقافي ، ولقد تلقى الأسئلة بعد رحيله . كان الفاعل مألوفاً لديه . كانت تلك مسألة معاشة بالنسبة إليه . فجأة صارت رغبته بتسليط ضوء فعله عليه لا تقاوم . وكانت رغبته تتجه إلى العمل بحضور تادزيو ، إلى اتخاذ الولد ذاته كمثال فيما هو يكتب ، إلى ترك أسلوبه يتبع خطوط ذلك الجسد الذي يبدو له إلهياً ، والى أن ينقل جماله إلى حقل الروح كما حمل النسر في الماضي الراعي الطروادي إلى الأثير . لم يحس يوماً بلذة الكلمة verbe بصورة أكثر متعة ، ولم يفهم مرة إلى ذلك الحد أن الإله إيروس يعيش في الكلمة ، كما أحس بذلك وفهمه أثناء الساعات الخطرة واللذيذة التي كان فيها جالساً إلى طاولته الخشنة ، في مواجهة معبوده الذي كان صوته الموسيقي يبلغ أذنه ، يصوغ على صورة تادزيو الجميل مقالته القصيرة ، صفحة ونصفاً من النثر المتقن الذي كانت نقاوته ونبله وقوته المهتزة ستثير في مهلة قصيرة العديد من المعجبين . إنه حسن بالتأكيد ألا يعرف الناس سوى الرائعة ، وليس بداياتها ، ليس شروط تكوينها وظروفه . غالباً ما تخيب معرفة المنابع التي نهل منها الفنان إلهامه آمال الجمهور وتحرفه عنه وتلغي هكذا تأثيرات الكمال . أية ساعات عجيبة ! أية مزاوجة غريبة

وخصبة للروح والجسد ! حين شد آشنباخ على ورقته وترك الشاطىء ، أحس بنفسه مرهقاً ، محطماً ، وكان يبدو له أنه يسمع اتهام ضميره كما بعد فجور .

حدث في الصباح الباكر التالي أنه ، فيما كان يغادر الفندق ، شاهد من درج المدخل تادزيو وهو في طريقه الى البحر ، يقترب من الحاجز بالضبط وحيداً . إن الرغبة ، مجرد فكرة استناح الفرصة للتعرف بسهولة ومرح الى ذلك الذي سبب له ، دون ان يدري ، ذلك القدر من الحماس والانفعال ، لتوجيه الكلام إليه والتلذذ بجوابه ونظراته ، كانت تنطرح بشكل طبيعي وتفرض نفسها . كان تادزيو الجميل يسير الهوينى ، وبالامكان ملاقاته . لذا فقد حث آشنباخ الخطى . بلغه على طريق الألواح الخشبية خلف الكابينات ، أراد ملامسة رأسه او كتفه ، وعلى شفتيه كلمة تافهة ، تعبير مهذب بالفرنسية . أحس إذ ذاك بقلبه يخفق كمطرقة ، ربما جزئياً بفعل مشيته المتسارعة ، وبأنه لن يستطيع ، وهو يكاد يختنق ، أن يتكلم إلا بصوت ضائق ومرتعش . تردد ، حاول السيطرة على نفسه ، وفجأةً ، خشية ان يكون لحق بالمراهق الجميل

طويلاً عن كثب ، خوفاً من لفت انتباهه ، من نظرته المستجوبة حين يستدير ، استعد لوثبته الأخيرة ، توقف متراجعا عن مشروعه ومر مطأطىء الرأس بخطوات سريعة .

« فات الأوان ! » ، هكذا فكر في تلك اللحظة . فات الأوان ! هل فات الأوان فعلاً ؟ ذلك المسعى الذي ترك فرصة القيام به تمر كان يمكن ان يؤ دي بسهولة إلى حل سهل وسعيد ، إلى صحو ملائم من سكرته . لكن لا شك ان الفنان الشائخ كان بلغ حد أنه لم يعد يريد أن يصحو ، وأنه يلتذ بسكره . من بوسعه أن يشخص جوهر روح فنان وبصمتها الخاصة ؟ كيف تحليل المزيج العميق من غريزة الانضباط والإباحة المزدوجة الذي تتألف منه دعوته ! أن يكون المرء عاجزاً عن أن يريد العودة الملائمة إلى رباطة الجأش ، فتلك إباحة جامحة . لم يعد آشنباخ مدفوعاً لدراسة نفسه بنفسه . لم يكن يميل به الذوق ، الطريقة الذهنية الخاصة بسنه ، اعتبار قيمته الخاصة به ، النضج وثمرته البساطة ، إلى تشريح دوافع ، وإلى تحديد ما إذا كان لم ينفذ مخططه نتيجة لوسواس أو لضعف جبان . كان مرتبكا يخشى أن يكون لاحظ شاهد ما ، حتى ولو حارس

الشاطىء ، جريه واندحاره ، ويخاف من السخرة . وكان فضلا عن ذلك يهزأ في سره من الرعب الشديد الذي أصابه بصورة مضحكة : « إنه ذعر حقيقي » ، فكر في ذاته ، ذعر الديك الخائف الذي يدع جناحيه يعلقان أثناء المعركة . إنه في الحقيقة الإله بالذات الذي يحطم هكذا ، في حضرة موضوع حبنا ، شجاعتنا ويحط إلى الأرض كبرياءنا . هكذا كان يثرثر ، يهذي ، ممتلئاً بثقة أشمخ من أن تخاف عاطفة . لم يعد يفكر بنهاية فترة الاستراحة التي منحها لنفسه . لم تخامره مرة واحدة فكرة العودة . أرسل فاستحصل على مبلغ كبير من المال . كان انشغاله الوحيد يتعلق برحيل العائلة البولونية المحتمل . إلا أنه علم وهو يستخبر عَرَضاً من حلاق الفندق ، أن تلك العائلة نزلت المكان قبل قليل من وصوله هو . كانت الشمس تلفح وجهه ويديه ، والهواء المالح يثيره ، يضاعف قدرته على الإحساس ، وكما أنه اعتاد في الماضي ان ينفق حالاً بغية إبداع عمل فني كل رأسماله من القوة التي قدمها له النوم والغذاء أو الطبيعة ، كان يبذر الآن بسخاء عديم التبصر ، في نشوة عاطفية ، كل تجديد القوة الذي تمنحه إياه الشمس والفراغ والهواء البحري كل يوم .

كان نومـه قصـيراً . تفصـل الأيام اللـذيذة برتابتهـا ليال قصيرة ممتلئة اضطراباً هانئـا . كان ينسحـب في الواقـع باكراً جداً ، ذلك انه حين تحل الساعة التاسعة ويختفي تادزيو عن المسرح ، كان يبدو له أن النهار انتهى . لكنه كان يستيقظ منذ تباشير الفجر منتفضاً بحنان . يتذكر قلبه مغامرتـه . لا يعـود يحتمل السرير فينهض ويمضي ليجلس عنـد النافـذة المفتوحـة ينتظـر شروق الشـمس وهـو متلفـح بغطـاء خفيف يقيه برد الصباح . كان الحدث العجيب يفعم روحه التي طهرها النوم بانفعال ديني . ما تزال السماء والأرض والبحر مغمورة بالبياض الشبحي للساعة الحائرة . كانت نجمة متشاحبة تطفو في المدى الغامض . لكن هوذا نسيم يهب ، رسالة من مسـاكن عصية تعني ان الإلهة إيبوس تركت ذراعي زوجها . كان يولد إذ ذاك ذلك الاحمرار المحبب لمناطق السماء والأرض الأكثـر بعـداً ، الذي يعلن الخلق المنكشف للحواس . كانت تقترب الإلهة ، خاطفة المراهقين ، تلك التي خطفت كليتوس وكيفالوس والتي تتمتع بحب اوريون الجميل ، متحدية غيرة الأولمب بأجمعه . وعلى حدود العالم ، كان يبـدأ نثـير ورود ، صفـاء وازهـرار بروعة لا توصف . كانت غيوم وليد ، غير مادية ، مضيئـة ،

ترفرف كآلهة حب خانعة في البخار المزرورق والوردي . كان حجاب أرجواني ينسدل على البحر الذي يبدو كما لو يتقدم به في تماوج أمواجه . تنطلق من الأسفل سهام ذهبية نحو أعالي السماء ، ويصبح الضوء حريقاً . كان الاضطرام الأحمر ، الحريق المشعوعل يقتحم السماء بصمت وبقدرة إلهية ، فيما يصعد إلى الأثير سُعاة فيبوس - أبولون المقدسون ، يدوسون الفضاء بمداساتهم عديمة الصبر . كان الساهر المتوحد جالساً تحت أشعة الإله الساطعة ، يسلم جفنيه مغمض العينين لقبلة الكوكب المجيد . تعود إليه الآن مشاعر من الماضي ، هموم قلب صبوية ولذيذة ، مدفونة في مجرى حياته المطبوعة بالكد الصارم ، فترتسم على وجهه ابتسامة مرتبكة ذاهلة . كان يحس وهو يفكر ويحلم باسم يتكون بهدوء على شفتيه ، ثم يستسلم للنعاس مرة أخرى وهو ما يزال يبتسم مرفوع الوجه نحو السماء ويداه مضمومتان على ركبتيه .

إلا أن النهار الذي يدشنه الإشراق السماوي على تلك الصورة الاحتفالية كان يرتفع بمجمله وينتقل الى عالم أسطوري . من أي إقليم يأتي ، من أي أصل ينبثق ذلك النسيم الذي كان يداعب فجأة خده وأذنه بلطف مقنع جداً ،

في مثل بوح من الملأ الأعلى ؟

كانت عصابات من الغيوم الصغيرة النديفية البيضاء تنتشر في السماء ، شبيهة بقطعان في مراعي الآلهة . هبت ريح أعتى ، وهرعت جياد بوزايدون حروناً ، ومن هنا ومن هناك كانت ثيران الإله البحري ذي الشعر اللازوردي تقفز الى الأمام حانية قرونها وهي تخور . لكن بين ركام صخور الساحل الرملي البعيد ، كانت الأمواج تقفز كعنزات لعوب . كان عالم مشوه بقداسة ، ممتلىء بإله الرعاة ، يحيط آشنباخ بسحره فيما يحلم قلبه بأساطير ناعمة . بقي مرارا ، والشمس تنزل خلف البندقية ، جالسا على مقعد في المنتزه يلاحق بعينيه تادزيو المنصرف للعب بالطابة مرتديا لباسا أبيض بزنار ملون ، ولقد كان يعتقد في ذلك الحين أنه يرى هياكنتس الذي مات لأن إلهين كانا يحبانه . لا بل كان يحس بغيرة زفير الأليمة تجاه خصمه الذي ينسى العرّاف والقوس والسيتار ليلعب على الدوام مع الفتى الجميل . كان يرى القرص ، توجهه غيرة قاسية ، يبلغ الرأس المحبوب . يتلقى بين ذراعيه ، وهو يشحب بدوره ، الجسد المتراخي ، وتحمل الزهرة المولودة من الدم الثمين نقش شكواه التي لا تنطفىء .

لا شيء أكثر فرادة ، أكثر إرباكاً من حالة الأشخاص الذين يعرفون الواحد الآخر بالوجه وحسب ، والذين يتصادفون في كل ساعة من النهار ، يراقبون بعضهم بعضا وهم مضطرون مع ذلك تحت ضغط العادات أو مزاجهم الشخصي لتصنع اللامبالاة والالتقاء مثل غرباء دون تحية ودونما كلمة . يسيطر فيما بينهم قلق وفضول زائدان ، حالة هستيرية ناجمة عن كون حاجتهم الى التعارف والتواصل تبقى دون إشباع ، يخنقها حاجز مضاد للطبيعة ، وعلى وجه الخصوص كذلك نوع من الاحترام الاستفهامي . ذلك أن الإنسان يحب شبيهه ويحترمه طالما ليس بوسعه أن يحكم عليه ، والرغبة هي ناتج معرفة ناقصة . كان على آشنباخ والفتى تادزيو أن يتعارفا حتماً بشكل أو بآخر ويتواصلا ، ولقد تمكن الرجل الناضج أن يلاحظ بفرح نفاذ أن تعاطفه واهتمامه لم يبقيا دون استجابة كلياً . لماذا لم يعد الفتى الجميل مثلاً يأخذ طريق الألواح الخشبية خلف الكابينات وهو ذاهب الى الشاطىء عند الصباح ، بل صار يمر على العكس أمام الآخرين على الرمل بمواجهة المكان الذي يجلس فيهآشنباخ ، وأحياناً قريباً جداً منه ، دون الاضطرار الى ذلك ، إلى حد أنه كان يكاد يلامس

طاولته وكرسيه ؟ هل كان ذلك تأثير جاذبية عاطفة سامية على موضوعها الأضعف وغير المتنبه ؟ كان آشنباخ ينتظر كل يوم وصول تادزيو ، وحين يأتي هذا ، يتصنع الانشغال أحياناً ويترك الفتى الجميل يمردون ان يبدو عليه أنه لاحظه . لكنه كان يرفع عينيه أحيانا وتتلاقى نظراتهما . كانت تبدو عليهما معاً في تلك الحالات علامات الصرامة العميقة . لم يكن ثمة ما ينم عن الانفعال في هيئة آشنباخ ذي الملامح الحاسمة والمفعمة كرامة . إلا أنك كنت تقرأ في عيني تادزيو فضولاً ، تساؤلاً حائراً ، أصبحت مشيته مترددة ، يغض عينيه ثم يرفعهما بلطافة ، وعندما يكون قد مر يبدو شيء ما يدل في هيئته على أن احترام اللياقات وحده يمنعه من الاستدارة الى الخلف . إلا أنه حدث عكس ذلك ذات مساء . لم يحضر البولونيون ولا مربيتهم العشاء في صالة الطعام الكبرى . لاحظ آشنباخ ذلك بقلق . كان يتنزه أمام الفندق بعد العشاء ، قلقاً جداً من غيابهم ، وهو يرتدي زيه المسائي وقبعة من القش ، حين رأى فجأة الشقيقات الثلاث بمشيتهن التي تشبه مشية الراهبات وبصحبة المربية ، فيما يسير تادزيو على بعد خطوات أربع خلفهن ، تحت ضوء المصابيح المقوسة . كانوا بالطبع آتين من

رصيف الميناء بعد أن تعشوا لسبب ما في المدينة . لابد أنه كان ثمة قرصة برد على سطح الماء ، وكان تادزيو يرتـدي لباسـاً بحرياً أزرق قاتمـاً بأزرار مذهبـة ، ويعتمـر طاقية . لم تكن تلفحه الشمس ولا هواء البحر فبقي جلده ذا لون مرمري مائل قليلا الى الاصفرار . إلا أنه كان يبدو أشحب في ذلك اليوم من المعتاد ، إما بفعل البرد أو بسبب ضوء المصابيح الباهت الشبيه بضوء القمر . كان لحاجبيه المرتسمين بصورة متساوقة نتـوآت أكثر وضوحاً ، وكانت عيناه أكثـر قتامـة . كان يفـوق جمالـه القدرة على التعبير فأحس آشنباخ مرة أخرى بألـم ناجـم عن كون اللغة قادرة على الاحتفال بالجمال لكنها عاجزة عن التعبير عنه .

لم يتوقع الظهور الغالي ، حدث ذلك بصورة مباغتـة ، ولم يجد متسعا من الوقت ليتحكم بهيئته ، لإضفاء الاعتـزاز والهدوء عليها . إرتسم على وجهه الفرح والدهشة والاعجاب بوضوح حين التقى نظره نظر من أقلقه غيابه ، وفي تلك اللحظة بالذات ابتسم تادزيو ، ابتسم له ابتسامة معبرة ، أليفة ، فاتنة ومفعمة بالاستسلام انفتحت معها شفتاه ببطء . كانـت تلك ابتسامـة نارسيس منحنياً على مرآة الينبـوع ، تلك الابتسامـة

العميقة المتهللة الطويلة التي يمد معها ذراعيه لانعكاس جماله ، ابتسامـة تداخلهـا حركة مزاج خفيفـة جداً ، بسبـب بطـلان جهوده لتقبيل شفتي صورته المغريتين ، ابتسامة مفعمـة دلالاً وفضولاً وألماً خفيفاً مفتوناً وفاتناً . أما ذلك الـذي تلقـى تلك الابتسامة هبة فقد حملها كهدية مشؤ ومة . إنفعل إلى حد أنه اضطر للهرب من ضوء مصطبة الفندق وردهته وتوجه سريعاً نحو الجهة المقابلة ، الى ظلام المنتزه . تلفظ في نوع من الاستياء الفريد بتوبيخات كلها حنان : « لا ينبغي أن تبتسـم هكذا ! أسمعت ؟ لا ينبغي أن تبتسم هكذا لأي كان ! » . إسترخى على أحد المقاعد منشغفاً ، مستنشقاً عطر النباتات الليلي . وفيما هو منحن إلى الوراء ، تتدلى ذراعاه وتهزه رعشات متلاحقة ، زفر صيغة الرغبـة الخالـدة . . . المستحيلـة في تلك الحـال ، العبثية ، السافلـة ، المضحـكة ، المقدسـة رغـم كل شيء ، والجديرة بالتوقير أيضا ، زفرها هكذا : « أحبك ! » .

٥

خلال الأسبـوع الرابـع من إقامـة غوستـاف آشنبـاخ في الليدو ، أبدى عدة ملاحظات مقلقة حول ما يحيط به . بدا له بادىء ذي بدء أنه كلما كان يقترب الموسم كان يتناقص نزلاء الفنـدق بدل تزايدهـم ، فيما ينخفض عدد متكلمـي الالمانية حوله ، الى درجة أن الأمر انتهى به إلى ألا يسمع على المائـدة وعلى الشاطىء إلا لغات أجنبية . ثم التقـط صدفـة في أحـد الأيام ، في حوار مع المزين الذي أصبح زبونه الدائم ، كلمة أثارت حيرته . لقد أشار الرجل الى عائلة المانية غادرت لتوها بعد إقامة قصيرة وأضاف ، وهو يواصل ثرثرته ، بنية تملق : « أما أنت أيها السيد فتبقى . أنت غير خائف من الوباء . ـ من الوباء ؟ » أجاب آشنباخ وهـو ينظـر إليه . صمـت الثرثـار ، متصنعاً الانشغال ، كما لو لم يسمـع السـؤال . وحـين كرره السائل بالحاح ، أجاب أنـه لا يعـرف شيئـاً ، وسعـى لتغيير الحديث ، مستعينا بسيل دفاق من الكلام .

حدث ذلك ظهراً . توجه آشنباخ بعد الظهر على متن أحد المراكب الى البندقية ، في طقس هادىء ، وتحت شمس مضنية . كانت تدفعه نزوة ملاحقة الأولاد البولونيين الذين رآهم يسلكون مع مربيتهم طريق الجسر العائم . لم يجد معبوده في سانت مارك . لكن فيما كان يشرب الشاي ، جالسا الى طاولته المستديرة الصغيرة في الجانب المظلل من الساحة ، استنشق في الجو فجأة أريجاً خاصاً ، بدا له الآن أنه اشتمه شميما مبهماً منذ أيام دون أن ينتبه لذلك ، رائحة صيدلانية عذبة توحي بالبؤس والجراح وبتدابير وقاية صحية مشبوهة . حللها وتحقق منها . أنهى فنجانه وهو مخلد للتفكير العميق ، ثم غادر الساحة من الجهة المقابلة للهيكل . كانت الرائحة تزداد حدة في الزقاق الضيق . ألصقت في زوايا الشوارع إعلانات مطبوعة تدعو فيها السلطات السكان بلهجة أبوية الى الامتناع عن استهلاك المحار وبلح البحر وأخذ الحذر من مياه القنوات ، خشية بعض الأمراض التي تصيب الجهاز الهضمي . كان واضحا أن الحقيقة قد زخرفت قليلا في التعميم الرسمي . تحلقت مجموعات صامتة على الجسور وفي الساحات ، وقد امتزج الغريب بهم ، مستفهماً وحالماً .

توجه بالسؤال إلى حانوتي مستند إلى إطار الباب ، عند مدخل مخزنه ، بين مسابح مرجان ومجوهرات من الجمشت المزيف ، مستوضحا حول الرائحة المزعجة . قاسه الرجل بعينين كئيبتين ثم استدرك برشاقة : « إنه تدبير وقائي أيها السيد ! قرار صادر عن الشرطة لا يمكن إلا تأييده . هذا الطقس الثقيل ، وهذا الشلوق لا يلائمان الصحة . باختصار ، إنه تدبير وقائي ربما يكون مبالغاً به . . . »

شكره آشنباخ وواصل سيره . وعلى متن الزورق الذي أعاده الى الليدو ، شم مرة أخرى الرائحة ذاتها .

بعد عودته الى الفندق ، توجه حالاً إلى الردهة نحو طاولة الصحف ، وفتش بين الأوراق . لم يجد شيئاً في الصحف الأجنبية . أما جرائد البلاد فكانت تورد إشاعات تشير إلى أرقام غير أكيدة وتنقل تكذيبات رسمية تشكك بصحتها . هكذا أمكن تفسير رحيل الالمان والنمساويين . أما مواطنو البلدان الأخرى ، فبديهي أنهم لم يكونوا يعرفون شيئا ، لم يكونوا يشكون بشيء ، لذا كانوا لا يشعرون بعد بقلق . « إن التعليمات تقضي بالسكوت ! » ، فكر آشنباخ غاضبا وهو

يقذف بالصحف على الطاولة . « ألسكوت عن هذا ! » . إلا أن قلبه امتلأ في الوقت ذاته رضًى سببتـه المغامرة التي انخرط فيها العالم الخارجي . ذلك أن الشغف ، كما الجريمة ، لا يتفق مع النظام العادي ، مع الراحة الرتيبة للحياة اليومية ، وينبغي له أن يستقبل بسرور كل إخلال بالآلية الاجتماعية ، كل انقلاب أو وباء يفجع الناس ، لأنه يمكن أن يكون لديه أمل غامض بأن يجد في ذلك فائدة له . هكذا كان آشنباخ يستخلص رضى مبهماً من الأحداث المقنعة رسميا التي كانـت تجـري في أزقـة البندقية القذرة ـ سر المدينة الحزين الذي كان يختلط بسر قلبـه هو ، ذلك الذي كان يخشى هو الآخر انكشافه خشية عظيمة . مستسلماً لحبه كلياً ، لم يكن يخاف إلا إمكانية رحيل تادزيو ، وقد اعترف في قرارة نفسه ، ليس دونما ارتعاب ، أنه لن يكون في وسعه الاستمرار في الحياة فيما لو وقعت تلك الواقعة .

لم يعد يكتفي الآن بأن يتقبـل من مجـرى الحياة اليومـي والصدفة نعمة رؤ ية تادزيو الجميل عن كثب . كان يلاحقه ، يحاول مفاجأته . يوم الأحد مثلا ، لم يكن البولونيون يظهرون أبدا على الشاطىء . حزر أنهـم يذهبـون لسماع القـداس في

سانت مارك . كان مستعجلا للذهاب الى هنـاك . خارجاً من أتون الساحة ، كان يدخل في الغبش المذهب للمعبد ، ويجد علة أحزانه يحضر الذبيحة منحيا على مركع . كان إذ ذاك يقف في المؤخرة ، على بلاطات الفسيفساء المتشققة ، وسط الجمهور الساجد الذي يهمهم راسماً إشارة الصليب ، وقد كانت فخامة الهيكل الشرقي ترهـق أحاسيسـه بالتـذاذ. ثمـة كان الكاهـن المغطـى بزين ثمينـة يروح ويجيء منشـدا ومـؤ ديا الحـركات الطقسية . كانت ترتفع أمواج من البخور ، محجبة الشعلات الواهية لشموع المذبح ، وكان يبدو فجـأة أنـه يمتـزج بلطافـة العطر الديني الثقيل عطر آخر : رائحة المدينة الموبوءة . لكن عبر أبخرة البخور وسطوع الزين الكهنوتية ، كان آشنباخ يرى صديقـه الجميل ، هنـالك في الصفـوف الأولى يدير رأسـه ، يبحث عنه ويجده .

حين كان يخرج الجمهور بعد ذلك من البوابات المفتوحة على الساحة المشعة ، المليئة بأسراب الحمام ، كان العاشق المتيم يختفي في الرواق ، يختبيء ، يكمن . يرى البولونيين يغادرون الكنيسة ، يرى الأولاد يستأذنـون أمهـم بالانصراف بصـورة

احتفـالية ، فيما تتوجـه هذه نحـو البيازيتـا Piazzetta في طريق العـودة . لاحـظ أن تادزيو الجميل ، وأخواتـه اللواتـي يبـدو عليهن كما لو كن خارجات من الدير ، والمربية يتوجهون الى اليمـين عبـر باب قبـة الجـرس ، ويسلـكون طريق سوق القماش ، فكان يتبعهم خفية في نزهتهم عبر البنـدقية ، تاركاً مسافة بينه وبينهم يتقدمون بها عليه . كان مضطـرا للوقـوف حين يقفون ، للجوء الى مطاعم حقيرة أو متنزهـات لتركهـم يمرون ، إذا عادوا على أعقابهم . كانوا يغيبـون عن نظـره ، فـيركض في إثرهـم لاهثـا منهـكا ، حـين يجتـازون الجسـور ويدخلون في دروب قذرة ،ويتحمل دقائق رعشة مميتـة حـين يراهم فجأة آتين نحوه في معبر ضيق يستحيل تجنبهم فيه . لا يمكن مع ذلك القول إنه كان يتألم . كان رأسه وقلبه مفعمين بالنشوة ، وخطواتـه تتبـع الشيطـان الـذي يلـذ له أن يدوس بالأقدام عقل الإنسان وكرامته .

كان يحدث ان يستقل تادزيو وأنسباؤه غوندولاً في مكان ما ، فيحذو آشنباخ حذوهم فور مغادرتهم الشاطىء ، بعد ان يكون اختفى خلف مبنى ناتىء أو ينبـوع وهـم يصعـدون .

يعطي الأمر للمجذف بصوت مخنوق وكلمات متدافعة ، مع وعد ببقشيش سخي ، أن يتبع خفية ، وعن بعد ، ذلك الغوندول ، هناك ، الذي يلف بالتحديد الزاوية . ويشعر بقشعريرة في ظهره حين يؤكد له سائق المركب بالنبرة ذاتها ، وبلهفة سمسار حقيرة ، أنه سيخدمه ، سيخدمه بوجدان .

هكذا كان يمضي ، يهدهده غوندوله ، وهو مستند الى الوسادات السوداء ، منزلقاً خلف المركب الأسود الآخر ذي الجؤجوء المرفوع كمنقار ، الذي يجره شغفه في إثره . كان يغيب أحياناً عن نظره فيشعر بالهم والقلق . إلا أن سائقه الذي كان خبيراً ، كما يبدو ، بمهمات مشابهة ، كان يعرف دائما عبر مناورات ماهرة وانحرافات سريعة واختصارات أن يجعله يرى من جديد موضوع شغفه . الجو هادىء ومثقل بالعطور ، والشمس ترسل أشعة حارقة عبر الأبخرة التي تصبغ السماء الرمادية . تسمع بقبقة المياه التي تضرب الرافدات والجدران . كان نداء الغوندولي ، وهو تنبيه وتحية في آن معاً ، يحدث باصطلاح فريد جواباً في أقاصي المتاهة الصامتة . من أعالي الجنائن المعلقة الصغيرة كانت خيمات بيضاء وأرجوانية لها رائحة اللوز تتهالك على الأسوار المتهدمة . تنعكس زخارف فتحات

الشبابيك في المياه العكرة . تنزل درجات مرمر إحدى الكنائس في الأمواج . يبسط متسول مقرفص على الدرجات ، زاعق ببؤسه ، قبعته ، مظهراً بياض عينيه كما لو كان ضريرا ، فيما بائع أثريات واقف أمام متجره يدعو العابر بحركات متذللة للتوقف ، آملاً الاحتيال عليه . تلك كانت البندقية ، العاهرة المخادعة ، المدينة التي تجمع بين الأسطورة والأحبولة ، والتي شهد جوها الآسن في الماضي ازدهاراً عظيما للفنون ، وألهمت النبرات المهدهدة لموسيقى ذات سحر شهواني . كان يبدو للمتنزه المغامر ان عينيه تكرعان من ينبوع اللذة الماضي ، وأن أذنه تتلقى مداعبة تلك الأنغام القديمة . تذكر كذلك ان المدينة مريضة وتخفي ذلك جشعاً ، وكان يراقب بشغف أكثر جموحاً الغوندول الذي يطفو هناك أمامه .

هكذا لم تعد تخطر لهذا الرجل في زيغانه فكرة أخرى أو إرادة أخرى غير أن يطارد على الدوام الموضوع الذي يلهبه ، أن يحلم به في حال غيابه ، وأن يوجه كلمات حنان الى ظله بالذات ، على طريقة العاشقين . كانت الوحدة في بيئة غريبة ، وكنز نشوة متأخرة وعميقة يشجعانه على ان يجيز لنفسه دون وجل أو حياء أكثر النزوات صدماً . هكذا توقف ذات

مساء ، وهو عائد من البندقية في ساعة متأخرة من الليل ، في الطابق الأول من الفندق أمام غرفة معبوده ، وبقي طويلا وهو يسند جبينه الى مفصلة الباب في حالة سكر كلي ، غير قادر على الانفصال عنها ، مجازفا باحتمال أن يفاجأ في ذلك الوضع الأخرق الذي يعود عليه بالعار .

إلا أنه كان في حالته لحظات توقف وعودة جزئية الى التعقل . اين أمضي ؟ هكذا كان يفكر إذ ذاك هلعاً . أين أمضي ؟ شبيهاً بكل رجل تلهمه مكانته الطبيعية اهتماماً أرستقراطياً بأصله وفصله ، كان معتاداً على تذكر أجداده ، نجاحاته ، مهنته ، على التأكد في فكره من تأييدهم ورضاهم ، من التقدير الذي يكنونه له . كان يفكر بهم أيضا ، الآن وفي هذا المكان ، حيث تورط في مغامرة غير مقبولة الى حد بعيد ، انخرط في فجور للقلب غريب الى حد بعيد . كان يتصور صرامة وقفتهم ، الحياء الرجولي لسلوكهم ، وترتسم على شفتيه ابتسامة كئيبة . ما الذي يقولونه ؟ لكن يا للأسف ! ماذا كانوا ليقولوا عن حياته كلها التي انحرفت عن خطهم حتى الانحطاط ، عن تلك الحياة المتقوقعة في دائرة الفن التي نشرهو بالذات عنها في الماضي أحكاماً لاذعة جداً تصدر عن شاب

مخلص لتراث آبائه البورجوازي ، والتي تشبه مع ذلك إلى حد بعيد في الواقـع حياتهـم ! هو أيضـا كان قد أدى الخدمـة العسكرية ، هو أيضا كان جندياً ومحارباً ، كما العديد منهم . ألم يكن الفن حرباً ، نضالا قاسيا لا يمكن تحملـه طويلا في أيامنا هذه : حياة انكار للذات أو عناد رغم كل شيء ، حياة مثابرة وتقشف جعل منهـا رمـز بطولـة مرهفـة ، ملاءمـة مع عصرنـا . كان من حقـه بالتـأكيد اعتبـارتلك الحياة رجـولية ومجيدة ، لا بل كان يبدو له ان الحب الذي استولى عليه مطابق وملائم على وجه الخصوص ، بصورة أو بأخـرى ، لحياة من مثل هذه . ألم يكن ذلك الشكل من الحب يلقى الاحترام بين باقي الأشكال لدى كل الشعوب الأكثر شجاعة ، أما كان يقال إنه بفضل الشجاعة ازدهر في مدنها ؟ لقد قبل العديد من القادة الأقدمين بنير ذلك الحب ، ذلك أن أي إذلال لم يكن ليعتبـر إذلالاً حين يأمر به إيروس ، وإن أفعالاً كانت لتستوجب اللوم كعلاقات جبن فيما لو اقترفت لغاية أخرى ، ركعات ،أيمانـاً ، رجاآت ملحة وحركات ذليلة ، تلك الأفعال عوض أن تعـود بالعـار على العاشـق ، كانـت تكسبـه على العـكس جملـة من المدائح .

ذلك هو الاتجـاه الـذي سارت فيه روح هذا الرجـل المفتون . وذلكم ما كان يحاول أن يستند إليه وكيف كان يسعى لصون كرامته . إلا أنه كان يعير في الوقت ذاته انتباهاً متفحصاً وعنيداً للأشياء الملتبسة التي تجري داخـل البنـدقية ، لمغامـرة العالم المحسوس تلك التي كانت تختلط بصورة غامضة بمغامرة قلبه وتغذي في داخله آمالاً مبهمـة وفوضـوية . مستبسـلا في محاولـة الوصـول إلى معلومـات أكيدة حول وضـع الوبـاء وتطوراته ، كان يتصفح بانفعال في مقاهـي المدينـة الصـحف الالمانية التـي اختفـت منـذ أيام عديدة من صالـة القـراءة في الفندق . كانت تتعاقب فيها التأكيدات والتكذيبات . يرتفـع عدد حالات المرض او الوفـاة ،كما يقـال ، الى عشرين أو أربعين ، لا بل الى مئة أو اكثر ، وأبعد قليلا ، إذا لم يجر إنكار أي ظهور للوباء بصورة جازمة ، فقد كان يتم حصر ذلك في بعض الحالات المعزولة الواردة من الخارج . يجري وسط تلك الاخبار تمرير تحفظات وتنبيهـات أو احتجاجـات ضد اللعبـة الخطرة للسلطات الايطالية . لكن لم يكن ثمة وسيلة لبلـوغ اليقين .

إلا أنـه كان لدى المتوحد شعـور بامتـلاك حق خاص

بالمشاركة في السر . وبما أنه وجد نفسه محروماً من ذلك ظلماً ، فقد وجد ارتياحا غريبا في أن يطرح على المطلعين أسئلة غرارة ، وفي ان يجبرهم على الكذب جهارا ، بما أنه كان يجمع بينهم الصمت . هكذا عمد يوماً ، وهو يتناول الغداء في القاعة الكبرى ، إلى سؤال المدير ، ذلك الرجل الصغير المرتدي ريدنغوتاً ، ذي المشية الصامتة ، الذي كان يمر محيياً ومراقباً بين صفوف الطاولات ، والذي توقف عند طاولة آشنباخ لمحادثة قصيرة . سأله هذا بلا مبالاة : « على فكرة ، لماذا يهتمون منذ حين بتطهير البندقية ؟ - ألأمر يتعلق ، جاوب الشخص المجامل ، بتدبير للشرطة معد ليتم في الوقت المناسب ، وكما ينبغي ، تلافي مختلف أنواع الاختلالات أو الاضطرابات في الوضع الصحي التي يمكن أن يولدها الطقس الثقيل والحرارة الاستثنائية . - إن سلوك الشرطة جدير بالتقدير » ، أجاب آشنباخ . تبودلت بعض الملاحظات حول الطقس ثم انسحب المدير .

حدث مساء اليوم ذاته ، بعد العشاء ، أن سمع النزلاء أصوات فرقة صغيرة من مغني المدينة المتجولين ، في الحديقة أمام الفندق . كانت تتألف من رجلين وامرأتين وقفوا قرب

السارية الحديدية لمصباح مقوس رافعين وجوههم البيضاء تحت ضوء الكهرباء ، نحو المصطبة الكبرى حيث تود شلة السابحين الذين يشربون القهوة والمرطبات ان تستمع للجوقة الشعبية . كان العاملون في الفندق ، من صبية المصعد الى الخدم فمستخدمي الوكالة يتزاحمون على أبواب البهو للاستماع . طلبت العائلة الروسية المفعمة حماساً واهتماماً بتذوق المتع كراسيّ مقششة الى الحديقة لتكون أقرب الى المغنين ، وجلست في نصف دائرة ، ملؤها الغبطة والانشراح . وقفت وراء الأسياد عبدتهم العجوز ، يلف رأسها المدراس . كان يؤلف أوركسترا الشحاذين المهرة ماندولين وغيتار وأكورديون وكمنجة بأنغام صاخبة ونطناطة .تتناوب مع الموسيقى الآلية قطع غنائية . هكذا كانت تضم الامرأة الأكثر فتوة عواء صوتها الحاد الى الغناء المتلاطف للتينور ، مغنيين لحن حب لاهبا . إلا ان نجم الجوقة كان دون شك عازف الغيتار الذي يثير حماس جمهوره بايمائية وطاقة هزلية مرموقتين ، وهو يغني دون الكثير من الصوت أدوار باريتون* غنائي . غالباً ما كان ينفصل عن الفرقة ، وآلته الكبيرة بين ذراعيه ، ويتقدم عازفاً ومعبراً

* آلة موسيقية نافخة (م) .

بالحركات نحو الجمهور الذي يشجع دعاباته بالضحك . كان الروس ، على وجه الخصوص ، الجالسون في الردهة ، هم الذين يبدون مفتونين بذلك القدر من الحيوية المتوسطية ، وكانوا يحمسونه بتصفيقهم وهتافهم للانطلاق بالمزيد من الثقة والوقاحة .

كان آشنباخ الجالس قرب الدرابزون يغمس أحيانا في المزيج المنعش من شراب الغرينادين ومياه سيلتز الذي كانت تلمع يواقيته أمامه في زجاجته . كانت أعصابه تستقبل بشراهة موسيقى الجوقة الصاخبة تلك ، ذات الأنغام المبتذلة والدنفة . ذلك انالشغف يعطل الحس النقدي ويعرض نفسه عن حسن نية لمتع يجدها المرء مضحكة وهو ثابت الجنان أو ينبذها بانعدام صبر . ولدى إظهار البهلوان لبراعاته ، كانت ملامحه تتقلص بابتسامة جامدة وأليمة . كان جالساً بلا مبالاة ، فيما يشنج قلبه أقصى الانتباه : فعلى ست خطوات منه ، كان تادزيو يستند الى الدرابزون الحجري .

كان يمكث هناك بالزي الأبيض الذي يرتديه أحيانا اثناء العشاء ، متحلياً بتلك اللطافة الأصلية التي لم تكن تفارقه ، مستنداً بمرفقه الأيسر إلى الحاجز ، مصلباً ساقيه ، واضعا يده

اليمنى على وركه ، وكان يغضي عينيه نحو المشعوذين يرتسم فيهما تعبير ليس ابتسامة بقدر ما هو فضول متحفظ وقبول لطيف . كان يستقيم أحيانا ويشد بلوزته البيضاء ساحباً إياها تحت الزنار الجلدي بحركة جميلة من ذراعيه . فيما يمدد صدره. لكنه كان يدير رأسه أحيانا أيضا ببطء حذر (ويلاحظ آشنباخ ذلك بغبطة منتصرة ، وبحمى في إدراكه كما بهلع في آن معاً) ، أو فجأة كما لو كان يريد مباغتة أحدهم ، ويلقي نظرة من فوق كتفه الأيسر نحو مكان الرجل ذي الشعر الرمادي الذي يحبه . لم يكن يلتقي عينيه ، لأن خوفاً مذلا كان يجبر المجنون المسكين على إغضاء عينيه بقلق .كانت السيدات يجلسن في أقصى المصطبة يراقبن تادزيو ، ولقد بلغت الأمور حد خوف العاشق من ان يكون لفت الانتباه والشبهة . لا بل لابد أنه لاحظ مراراً بنوع من الذعر ، على الشاطىء ، في بهو الفندق ، وفي ساحة سانت مارك ، أنهن كن ينادين تادزيو حين يكون قريباً منه ، وينتبهن لابقائه بعيداً عنه ، ـ ولم يستطع إلا أن يشعر بإهانة قاسية كانت تتحمل كبرياؤه منها عذابات لم يعرفها حتى ذلك الحين ، وكان وعيه يمنعه من إبعادها عنه .

إلا أن عازف الغيتار بدأ غناء منفرداً قام هو ذاته

بمصاحبته ، كان يغنى في تلك الأيام في كل إيطاليا ، وتتدخل الفرقة لدى كل لازمة بدعم كبير من الغناء والأوركسترا ، فيما يعزف من جانبه برونق وحس درامي أخاذين . كان منفصلا عن الفرقة بجسمه الهزيل ووجهه الناحل ، راداً قبعته الى الوراء وتاركاً سالفاً أصهب يفيض من تحتها ، ينتصب على الحصى في وقفة وقحة مستفزة ويطلق نحو الجمهور ، في إلقاء منغم قوي ، مزحاته المدعومة بقرصات وترية ، فيما ينفخ الجهد أوردة جبينه . لم يكن يبدو من أصل بندقاني ، بل بالأحرى من سلالة هزليي نابولي ، نصف قواد ، نصف كوميدي ، فظاً وجريئاً ، خطراً ومسلياً . كانت الأغنية ، التافهة تماما من حيث نصها ، تتخذ في فمه عبر التلاعب بهيئته ، حركات جسده ، غمزاته المعبرة وطريقته في تمرير لسانه بصورة شهوانية على زاوية شفتيه ، مظهراً ملتبساً وصادماً دون ان ندري لماذا . كان يبرز من طوق قميصه الرخو الذي يرتديه تحت زي مديني رقبة ناحلة تنفر منها جوزة عنق كبيرة تعطي انطباعاً بالعري . بدا وجهه المفلطح ، الشاحب والأجرد ، تحرثه التكشيرات والمعايب فيما كان هزء فمه المتحرك يوحي بتناقض غريب مع الثنيتين اللتين تنحفران متغطرستين ، قاهرتين ، شبه شرستين

بـين حاجبيه الأصهبـين . إلا ان ما استرعــى فيه على وجــه الخصوص الانتباه العميق للمشاهـد المتوحـد ، فهـو ان هذا الاخير لاحظ في الوجه المشبوه كما لو أن ظلاً خاصاً ليس أقل شبهة يندُّ عنه . كان المغني يقوم في الواقع عنـد كل استعـادة للازمة ، وهو يطلق تهريجات كثيرة وإرشادات احترام ، ببرمة مضحكة يمر خلالها أمام آشنباخ مباشرة ، وفي كل مرة يمر تفوح من ألبسته رائحة فينول قوية تنتشر فوق المصطبة .

ما أن انهى أغنيتـه حتى شرع يجمـع الاعـطيات . بدأ بالروس الذين دفعوا بأريحية ، ثم صعد بعد ذلك الدرجات . بقدر ما بدا وقحاً اثناء التمثيل ، بقدر ما ظهـر متواضعـاً على المصطبـة . كان يتغلغـل بـين الطـاولات بانحنـاآت عميقــة وأمارات احترام لا تنتهي ، وتكشف أسنانـه القـوية ابتسامـة تذلل مُداجٍ ، فيما بقيت الثنيتــان المهددتــان بــين حاجبيه الأصهبين رغـم كل شيء . كان الجمهـور يقـايس بنـوع من الفضول وبعض القرف المخلوق الغريـب الذي يجمع ما يقوم بأوده ، ويرمـي من طرف الأصابـع قطـع نقـود في قبعتــه ، متحاشيا ملامستها . إن إلغاء المسافة الجسدية بين الـكوميدي

والذوات يولد على الدوام ، ومهما تكن المتعة عظيمة ، نوعاً من المضايقة . كان يشعر بها ويحاول أن يعتذر بتهذيب متذلل . وصل الى مقربة من آشنباخ ومعه تلك الرائحة التي بدا أنها لم تحيرّ أحداً من الحاضرين .

ـ إسمع ! قال المتوحد بصوت مخنوق وبصورة شبه آلية . إنهم يطهرون البندقية ، لماذا ؟ !

أجاب المهرج بصوت أجش : « بسبب الشرطة ! كذا يقضي النظام أيها السيد في مثل هذا الطقس الحار وريح الشلوق . ريح الشلوق منهكة وضارة بالصحة . . . » . بدا وهو يتكلم أنه فوجىء بأن تكون أشياء كهذه موضع سؤال ، وكان يشرح بحركة توضيحية من كفه كيف أن ريح الشلوق مضنية . « ما من وباء إذن في البندقية ؟ » تمتم آشنباخ بصوت جد خافت . تقلصت ملامح المهرج في تكشيرة انذهال كوميدي . « وباء ! أي وباء ؟ هل ريح الشلوق وباء ؟ هل شرطتنا وباء من باب الصدفة ؟ أنت تمزح ! وباء ! آه ! مثلاً . تدبير وقائي ، هل تفهمني ؟ تدبير اتخذته الشرطة ضد نتائج طقس عاصف . . . » . وكان يكثر من الإشارات .

« طيب » ، تمتم آشنباخ باختصار وأسقط بقشيشاً كثيراً في البرنيطة . ثم أشار للرجل بطرف عينيه أن يمضي في سبيله . أطاع هذا بضحكة هازئة واحترامات عميقة . لكن لم يبلغ الدرج حتى ارتمى عليه اثنان من مستخدمي الفندق وأخضعاه عن كثب لاستجواب دقيق . كان يحرك كتفيه ، يحتج ، يقسم انه لم يبح بشيء . تركاه يمضي . عاد الى الحديقة ، وبعد اجتماع قصير بأعضاء فرقته تحت المصباح المقوس ، تقدم مرة اخرى ليؤدي أغنية وداع وشكر .

لم يتذكر المتوحد أنه سبق وسمع تلك الأغنية . كانت دعابة بالعامية ، هجائية ، وقحة ومزينة بلازمة قهقهات ضاحكة تستعيدها الفرقة كل مرة بأعلى صوتها . تتوقف لدى اللازمة الكلمات ومصاحبة الموسيقى ، فلا يبقى الا ضحكة مدرجة تتبع إيقاعاً معيناً ، لكن مؤداة بصورة طبيعية ، ضحكة كان العازف المنفرد يعرف على وجه الخصوص أن يطلقها بشكل يعطي معه اكثر الأوهام حدة . بعد ان أعيدت المسافة بين الفنان والسامعين ، استعاد كل وقاحته ، وكانت ضحكته المصطنعة المطلقة بوقاحة باتجاه المصطبة ضحكة استهزاء . بدا

عليه منذ كلمات المقطع الأخيرة أنه يقاوم دغدغة لا تقهر . كان يحوزق ، يرتجف صوته ، يضغط شفتيه بيده ، يهز كتفيه بعصبية ، وفي اللحظة المناسبة انفجر بالضحك الهازىء بصدق نبرة جعل عدواه تنتقل الى السامعين ، بحيث انتشر على المصطبة مرح صاخب بدون سبب ، يتغذى من ذاته . بدا كما لو ان تلك النتيجة قد ضاعفت المرح المجنون لدى المغني . كان ثانيا ركبتيه ، ضارباً فخذيه ، ممسكاً خاصرتيه ، متلوياً ، لم يعد يضحك ، كان يقهقه ويشير بإصبعه الى الجمهور الضاحك فوق ، كما لو لم يكن في الدنيا شيء أكثر إضحاكاً ، بحيث عم الحديقة والشرفة في النهاية مرح مضجاج شارك فيه حتى الغارسونات وصبيان المصعد والخدم المتحلقون حول الأبواب .

لم يعد آشنباخ هادئاً في مقعده . كان ينهض كما لمحاولة الهرب أو الدفاع عن النفس . إلا ان القهقهات ورائحة المستشفى التي كانت تصعد نحوه ، وفي محيط تادزيو الجميل ، كانت تختلط في افتتان يحبس رأسه وروحه في شبكة سحرية يعجز عن قطعها أو إزاحتها . لقد تجرأ خلال الاضطراب

والذهول العامين أن يلقي نظرة نحو المراهـق ، ممـا سمـح له بملاحظة الفتى الجميل يحتفظ هو الآخر بصرامته رداً على تلك النظرة ، كما لو كان يضبط سلوكه وتعبيره على سلـوك الآخـر وتعبيره فلا يستـطيع المزاج العـام أن يؤ ثـر فيه إطلاقـاً ، طالما يتهرب منه الآخر . كانت تلك الطاعة الطفولية المعبرة جداً تنم عن شيء ما يشل ويصرع كل مقاومة الى درجة ان آشنباخ امتنع بعد جهد جهيد عن إخفاء رأسه الأشيب بين يديه . بدا له أن اعتياد تادزيو على النهوض من حين لآخر ، بغية التنفس بحرية أكثر ، ناجم عن حاجة للتنهـد لاراحة صدره المضغوط . « إنه مريض ، ومـن المحتمـل ألا يعيش طويلا » ، هكذا فكر إذ ذاك ، بتلك الروح الايجابيةالتـي تبلغها أحياناً نشوة الهوى في تحرر فريد ، وامتلأ قلبه في آن معاً باهتمام صرف وفرح فاجر .

إلا أن المغنين البندقانيين أنهوا غناءهم وانسحبوا . لحـق بهم التصفيق ، ولم يتوان قائدهم عن تزيين رحيله بمداعبات جديدة . كانت انحناآته وتحياته تثير الضحك بحيث ضاعفها . كانت الفرقة قد خرجت حين تصنع الاصطدام بقساوة بعمود فانـوس وجـر نفسـه ، كما لو كان منحنيا من الألـم ، باتجـاه

الباب . لكنه نزع هناك فجأة قناع المهرج سيء الحظ وانتصب كما لو كان يحركه نابض ، سحب لسانه بوقاحة نحو نزلاء المصطبة وضاع في الظلام . تفرق جميع السابحين . كان تادزيو قد غادر الدرابزون منذ مدة طويلة . إلا ان المتوحد ظل وسط دهشة الأولاد جالساً الى طاولته أمام ما تبقى من شراب الغرينادين . ألليل يتقدم وتنصرم الساعات . كان في منزله الأبوي في غابر الأزمان ساعة رملية . . تلك الآلة الصغيرة ، سريعة العطب جداً والهامة جداً ، رآها فجأة من جديد كما لو كانت أمامه . كان الرمل المائل للون الصدأ يجري بصمت عبر ثقب الزجاجة الضيق ، وفيما كان يستنفد في التجويف العلوي ، تشكلت هناك زوبعة صغيرة جامحة .

قام آشنباخ منذ ما قبل ظهر اليوم التالي بمسعى جديد لمعرفة ما يجري في البندقية ، محققاً في هذه المرة نجاحا كاملاً . دخل في ساحة سانت مارك الى وكالة السفر التي يديرها انكليز ، وبعد ان صرف بعض المال على الصندوق ، توجه بالكلام للموظف الذي كان يخدمه ، وطرح عليه بسيماء الغريب المحترس السؤال المزعج . كان أمامه بريطاني مرتد لباساً صوفياً من

رأسه الى أخمص قدميه ، ما يزال في سن الشباب ، مفروق الشعر في الوسط ، ذو عينين متقاربتين كثيراً . كان الرجل ينم عن صدق يتناقض بصورة فريدة وممتعة مع الرشاقة المخادعة لجنوبي البلاد . « ليس من داع للقلق ، ايها السيد . إنه تدبير لا معنى خطير له : تلك ترتيبات يتم اتخاذها غالباً لتلافي التأثيرات الضارة لحرارة ريح الشلوق. . . » . إلا أنه فيما يرفع عينيه الزرقاوين ، التقى نظرة الغريب ، نظرة متعبة وحزينة قليلا موجهة نحو شفتيه وفيها ما ينم عن الاحتقار . إبتسم الانكليزي عند ذلك وتابع بصوت خافت مع شيء من الانفعال : « ذلك هو التفسير الرسمي الذي يجدون هنا من المناسب الاستمرار باعطائه . أما أنا فأعترف لك ان ثمة شيئاً آخر . » . وعندئذ قال الرجل الحقيقة بلهجته الشريفة غير المتكلفة .

٦

منــذ سنــوات عديدة والكولــيرا الأسيوية تتجــه الى الانتشار ، وقد كانت تنفجر خارج الهند بعنف أكبر فأكبر . إن الوباء الذي تولده الحرارة في الدلتا المستنقعية لنهـر الغانـج ، والأبخـرة الفاسـدة التـي ينفثهـا جَزْر ما يزال قريبـاً جداً من الخلق ، غابةٌ كثةٌ وغير مسكونة لا يقطنها غير النمور التي تلبد في أدغال البامبو ، الوباء هذا قد اكتسح الهند كلهـا حيث ما انفك يعيث فسـاداً بحدة غير معتادة . ثم امتد الى الشرق نحو الصين ، والى الغرب نحو الأفغان وبلاد فارس ، ووصل بفتكه حتى استراخان ، سالكاً طريق القوافل الكبرى ، لا بل وصل الى موسكو . إلا انه فيما كانت ترتجف لرؤ ية المرض يدخل من ذلك الباب ، فقد كان دخوله مع تجارسوريين آتـين من وراء البحار ظاهراً في الوقت ذاته في عدة مرافىء متوسـطية . أعلن عن نفسه في طولون ، وفي ملقه . جرى اكتشافه عدة مرات في

بالرم ، وبدا أنه تفشى في كالابرا والآبوليا بصورة نهائية . لم يسلم منه إلا الجزء الشمالي من شبه الجزيرة . إلا انـه في ذلك العام ـ كان الوقت منتصف أيار ـ جرى في يوم واحد اكتشاف البكتيريات القوسية في جثتين مفرغتين ومسودتين لنوتي وبائعة متجولة . تم اخفاء الحالتـين . إلا أنـه ظهـرت في الاسبـوع اللاحق عشر إصابات ، عشرون ، ثلاثون ، وذلك في مختلف الأحياء . إن واحـداً من سكان المقاطعـات النمســاوية جاء يستجم بضعة أيام في البنـدقية ، توفي فور عودتـه الى مدينتـه الصغيرة وفاة لم يكن ثمـة مجـال للانخـداع حول سببهـا ، وهكذا وصلـت أولى إشاعات الوباء الـذي انفجـر في مدينـة البحـيرات السـاحلية الى الصـحف الالمانية . أجـاب قضــاء البندقية البلدي ان الشروط الصحية للمدينة لم تكن أفضل يوماً وأنه تم اتخاذ التدابير القصوى لمكافحة الوباء . إلا انه لا ريب ان الأطعمة ، الخضار واللحم والحليب ، كانت كلها موبوءة لأنه ، وإن يكن تم تكذيب الانباء او تظبيطها ، فقد كان الوباء ينتشر . كان الناس يموتون في الأزقة الضيقة ، وقد ساعد انتقال العدوى حر مبكر كان يفتِّر مياه الاقنية . بدا ان الوباء يتفاقم وان الأبخرة الفاسدة تضاعف من صلابتها وحدتهـا . كانـت

حالات الشفاء نادرة بينما يموت ثمانون بالمئة من المصابين موتا رهيبا ، لأن المرض يبدي عنفاً لا متناهياً . وكثيرا ما ظهر شكله الأشد خطورة ، ذلك الذي يسمونه الشكل الجاف . يكون الجسم في تلك الحالة عاجزاً عن التخلص من المُصالات التي تدعها الأوعية الدموية ترشح بكميات كبيرة . يجف المريض في ساعات قليلة ويخنقه دمه الذي أصبح دبقاً . يحتضر وهو يتشنج ويحشرج .

يكون المرء محظوظاً فيما لو حدث ، كما الحال أحياناً ، أن أعلنت الكوليرا عن نفسها بعد انزعاج خفيف يتخذ شكل إغماء عميق يكاد لا يستيقظ منه . إمتلأت في بدء حزيران معازل المستشفى المدني دون ضجيج . لم يعد ثمة سرير واحد في الميتمين وانتشر رواح ومجيء جنائزي بين الرصيف الجديد وسان ميشال ، جزيرة المقبرة . لكن الخوف من خسارة تلحق بالمجموع ، الأخذ بالاعتبار أنه تم افتتاح معرض رسم في الحديقة العامة ، وأن الفنادق ، دور التجارة ، كل الصناعة المعقدة للسياحة تتعرض لخسائر ضخمة في حال انفجر الذعر نتيجة لفضح واقع المدينة ، كل ذلك كان يتغلب على حب

الحقيقة واحترام الاتفاقات العالمية ، ويدفع السلطات الى المثابرة بعناد على سياسة الصمت والتكذيبات التي اعتمدتها . إستقال غاضباً مدير مصلحة الصحة في البندقية ، وهو رجل ذو جدارة ، وتم استبداله سراً بآخر أكثر مرانة . كان الشعب يدري بذلك ، فيما يؤدي فسادأعيان المدينة ، مضافاً لانعدام اليقين الذي يسود ، لحالة الاستثناء التي يغرق فيها الموت الجوال البندقية ، الى افساد الطبقات الدنيا ، الى اندفاع الأهواء المخجلة ، غير المشروعة ، والى نمو نزعة اجرامية تنفجر فيها ، تعلن عن نفسها بوقاحة . يلاحظ في المساء الكثير من السكيرين ، وهو أمر شاذ . يقال إنه مع حلول الليل كان جوالون يجعلون الشوارع غير مأمونة . تتكرر الاعتداءات وأعمال القتل ، وقد حدث مرتين ان تم تسميم أشخاص ، زُعم أنهم ضحايا الوباء ، على يد أقاربهم الراغبين في التخلص منهم . بلغت الآفة المهنية درجة إلحاح وفساد لم تكن معروفة في تلك المنطقة لولاه ، ولم يكن الناس معتادين عليها إلا في جنوبي البلاد وفي المشرق . روى الانكليزي لأشنباخ زبدة ذلك كله واختتم بقوله : « يحسن ان ترحل ، واليوم أفضل من الغد . لن يتأخر الحجر الصحي اكثر من ايام

معدودات » . ـ « شكراً » ، قال آشنباخ وغادر المكاتب .

رزح على الساحة جو صيفي خانق غير مشمس . كان غرباء جاهلون الحقيقة يجلسون على أرصفة المقاهي ، أو يمكثون وسط أسراب الحمام أمام الكنيسة ، ويتسلون برؤ يتها ترتع ، تتدافع ، تنقر حبوب الذرة التي تعرض عليها في تجويفة الكف . كان آشنباخ يذرع وحيداً بلاطات ساحة الشرف مضطرباً ، محموماً ، منتصراً لامتلاكه الحقيقة ، ممتلىء الفم قرفاً ، مرتجف القلب حيال رؤ ى وهمية غريبة . كان يشاور نفسه حول امكانية القيام بعمل يجدر تقريره يكون مطهِّراً . يمكنه في المساء بالذات بعد العشاء أن يقترب من السيدة المزدانة باللآلىء ويكلمها بتعابير بدأ يصوغها : « إسمحي ، سيدتي ، لأجنبي ان يسدي إليك نصيحة ، تحذيراً تحرمك منه أنانية الآخرين . غادري البندقية حالاً مع تادزيو وبناتك ! فالكوليرا في المدينة . » . يصبح جائزاً له بعد ذلك ان يضع على رأس المراهق المترحل ، الذي كان أداة إله ساخر ، يديه الاثنتين ، ثم ان يستدير ويفر من ذلك المستنقع . إلا أنه أحس في اللحظة ذاتها ببعده البعيد عن اتخاذ قرار من هذا النوع . فالخطوة المخطوة تعيده الى الوراء ، تعيده الى نفسه .

لكن من هو خارج نفسه لا يخشى شيئا خشيته دخولها . تذكر مبنى وضاء تزينه النقوش التي تلمع عند المساء ، والتي لفتت شفافيتها الصوفية نظره ، فكره التائه . تذكر كذلك شبح المسافر الغريب الذي أيقظ في قلبه الشائخ الرغبة الصبوية في الرحيل ، في الانطلاق دون هدف إلى البعيد ، على غير هدى . إن فكرة العودة الى المنزل ، تصحيح الخطأ ، إسقاط الإثارة ، والاشتغال بالمهمة التي تتطلب اجتهادا وتمالكاً ، كانت تنفره الى حد ان ملامحه تقلصت للتعبير عن قرف جسدي : « ينبغي الاخلاد الى الصمت » ، تمتم بحدة .

وأضاف : « سأصمت » . كان الشعور بالتواطؤ يسكره كما يفعل قليل من الخمر بدماغ مرهق . إن لوحة المدينة الموبوءة ، والمتروكة بلا عناية ، التي عبرت خياله المحموم ، كانت تشعل فيه آمالاً تتخطى النفس وتتجاوز العقل ، آمالاً ذات عذوبة مخيفة . ماذا كانت بالنسبة إليه الغبطة اللطيفة التي حلم بها لحظة ، إذا قورنت بهذا الانتظار ؟ ماذا يمكن ان يفعل له الآن الفن والفضيلة بالقياس الى امتيازات الخواء ؟ أخلد الى الصمت وقرر البقاء .

رأى في تلك الليلة حلماً رهيباً ـ إذا أمكن إطلاق تسمية الحلم على دراما الجسد والروح تلك التي حدثت دون ريب فيما هو نائم نوماً عميقاً ، متمثلة بأشكال محسوسة وبالاستقلال الكلي عنه ، لكن كذلك دون ان يعي انه هو نفسه خارج الأحداث . على عكس ذلك ، فقد كانت روحه بالذات مسرحها ، وكانت تلك الأحداث وهي تهاجمه من الخارج تحطم مقاومته ، تغتصب قوى نفسه العميقة ، تزعزع كل شيء وتترك وجوده ، البناء المعنوي لحياته بأكملها ، مدمراً ، معدوماً .

بدأ ذلك بالقلق ، واللذة ، وبفضول ممزوج بالرعب حيال ما سيحدث فيما بعد . كان الليل مخيماً ، وأحاسيسه يقظى . ذلك انه كان يسمع ضجة تقترب من البعيد ، قرقعة ، هرجاً ومرجاً هو مزيج من ضوضاء سلاسل وأبواق وزمجرات صماء شبيهة بالرعد وصرخات حادة تنم عن ابتهاج ونوع من العواء وأصوات نعيب تنتهي بـ « أُو » ممدودة ، والكل ممزوج بأغاني شبابة هادلة ورزينة ، شهوانية وسفيهة ، لم تكن تنقطع ، مهيمنة على الباقي بحلاوتها الرهيبة ، تمسك الكائن

بأحشائه بصورة شبقية . إلا أنه كان يعرف كلمة قاتمة تدل مع ذلك على ما سيأتي : « الإله الغريب ! » . كانت أضواء غامضة تشتعل : رأى جبلا شبيها بذلك الذي يحيق بمحل إقامته الصيفي . وفي الأضواء التي كانت تمزق غبش المرتفعات الحرجية ، بين جذوع الأشجار وزوايا الصخور المعشبة ، كان شيء يتساقط ركاماً ويتدافع نحوه : زوبعة ، شلال رجال ، حيوانات ، فِرْق نحل ، رهط هائج وكان ذلك يغمر المنحدرات المعشوشبة بالأجساد واللهب والرقصات العنيفة والدوّارات المدوخة . كانت نسوة لابسات جلود حيوانات تتدلى فوق احزمتهن وتربك اقدامهن ، يرفعن الى الخلف دفوفاً بجلاجل وهن يحشرجن . كن يلوّحن بمشاعل تقذف باقات شرارات وخناجر عادية . كن يحملن أفاعي ، يمسكنها من وسطِها ، تقذف ألسنتها الحادّة . أو يسرن مطلِقات صيحات ومقدمات نهودهن المرفوعة بأيديهن . كان رجال لهم قرون على الجبين وجلود حيوانات عند الحزام ، موبرون كالدّببة ، يحنون الرقبة ، يكافحون بكل أعضائهم ، تدوي تحت ضرباتهم صنوج قلزية ، أو تصدر عنهم تشويرات غاضبة وهم يقرعون على دفوف ، فيما كان اولاد عراة ومُلْسٌ ينخسون بقضبان مزينة

بالخضرة تيوساً لها قرون يتعلقون بها ، تجرهم وهم يقفزون مطلقين صيحات فرح . وكان الممسوسون ينعبون نشيدهم المؤلف من حروف صوامت ناعمة تنتهي بالـ « أُو » الممدودة ، وذلك بأنغام تتسم بوحشية وعذوبة خارقتين . كان يصعد من احد الأمكنة مقنّىً في الأجواء ، شبيهاً بنداء أيل ينزب ، فيما يتكرر عند نقطة أبعد قليلا بألف صوت له نبرات انتصار مجنون ، حاضاً على الرقص والتشويرات ، ولم يكن يُفسَح له المجال ليتوقف . لكن كل شيء كان يجتازه يسيطر عليه لحن الشبابة الخافت والساحر . ألم يكن يسحره هو أيضا ، هو الذي كان يعيش وهو يتخبط ذلك المشهد ، ويحس بنفسه وقد جذبه العيد الاباحي باصرار ، واحتدامات الذبيحة القصوى ؟ كان قرفه عظيماً ، عظيماً كان خوفه ، شريفة كانت إرادته أن يحمي حتى النهاية ما كان له ضد الغريب ، عدو الروح التي تريدان تتمالك وتتحكم بنفسها . إلا أن الضجيج ، النداء الوحشي المتكاثر بفعل صدى الصخور ، كان يتعاظم ، يستولي عليه ، ينتفخ متحولاً الى هذيان لا يقاوم .

كانت أبخرة تزكم الأنف ، رائحة التيوس الحادة ، عفن

الأجساد اللاهثة ، نَفَسٌ شبيه بذلك الذي يفوح من المياه الآسنة ، ثم رائحة أخرى أيضاً ، مألوفة ، كرائحة الجراح والأمراض المنتشرة في الجو . كان قلبه يدوي على ضربات الدفوف ، ويبرم دماغه ، يستولي عليه الغضب والعمى وتخبله اللذة ، وكان يشتهي من أعماق روحه أن يدخل في دوّارة الإله . تُرك الحجاب يسقطعن الرمز الداعرالمصنوع من خشب جبار ، وحين انتصب مع صيحات اكثر جنوناً ، تلفظوا بالكلام الطقسي . كانوا يثيرون بعضهم بعضاً بحركات شبقة والزبد يعلو شفاههم ، مختلي العقل ، وأيديهم شاردة . ووسط الضحك والتنهدات ، يغرزون مهاميز بعضهم في لحم بعض ويلكحون الدم النازف من أعضائهم . كان النائم معهم ، كان فيهم . وقد أسلمه حلمه للإله الغريب . أجل ، لقد تجسد في كل من أولئك الذين كانوا يرتمون على الحيوانات ، بحركات هيجان ومجزرة ، ويلتهمون مزقا مدخنة من لحمهم ، حين انتهى عراك صاخب لا اسم له بالنشوب على الطحلب المخروب ، من أجل القربان الأسمى للإله . وقد تذوقت روحه الفسق، نشوة الانهيار والدمار .

إستيقظت الضحية من ذلك الحلم مدمرة ، مزعزعة ،

مُسْلمة للشيطان دون دفاع . لم يعد يخشى نظـرات من كانـوا يراقبونه . لم يكن يهمه إطلاقاً أن تحوم حوله الشبهات . زد على ذلك انهم كانوا يرحلـون ، يهربون . كانت الكابينات تبقـى فارغـة بأعداد كبيرة ، وتفرغ لائحة النزلاء أكثر فأكثر ، وتندر رؤ ية غريب في المدينة . كان يبدو ان الحقيقـة رشحـت ، لم يعـد بالامكان منع حالة الذعر رغم تكتم المعنيين الصلب واتفاقهم على ذلك . لكن السيدة ذات اللآلىء بقيت هي وأولادها ، إما لأن الإشاعات لم تصلها ، أو لأنها كانت مكابرة جداً وأرفـع بكثير من الخوف فلا تستسلم : بقي تادزيو ، وكان يبدو أحيانا لآشنباخ المستغرق في حلمه ان الهرب والموت يزيلان من حوله كل حياة تزعجه ، وأنه يمكنه ان يبقى وحده في تلك الجزيرة مع المراهق الجميل . في الصباح على الشاطىء ، حين يثبـت على الوجه المشتهي نظرة ثقيلة جامدة ، غير مسؤ ولة ، وعند حلول الليل ، حين يفقد كل تحفظ فيتبعه في الأزقة حيث يختبىء الموت المقرف ، كان يبلغ حداً يجد معه آفاقا شوهاء مفعمة بالأمل ، ويعتبر القانون الأخلاقي عفا عليه الزمن .

كان يتمنى ان يثـير الاعجـاب ، كما أي عاشـق آخـر ، ويشعر بقلق مرير حيال فكرة استحالة ذلك . يضيف الى لباسه

ما يبهجه كما الخال مع رداء فتى في مقتبل العمر ، يتزين بحجارة كريمة ، ويلجأ الى العطور . يقضي جلسات طويلة كل يوم للتبرج ، ويمضي الى طاولته متزيناً ، مثارا ، متوتراً ، إزاء المراهق اللذيذ الذي أغرم به ، كان جسمه الشائخ يثير قرفه . يشعر بالخجل واليأس وهو يرى شعره الرمادي وملامح وجهه المتغضنة . كان شيء ما يدفعه الى إعادة الطلاوة لجسده ، إلى إعادة صنعه . كان يُرى غالباً في صالون حلاقة الفندق . يتأمل صورته في المرآة بنظرة معذبة ، وهو ملتف بالمئزر متمدد على الكرسي ، مستسلم لعناية حلاق ثرثار .

ـ أشيب ، قال بابتسامة ساخرة .

ـ قليلا ، أجاب الرجل . فضلا عن ان سبب ذلك إهمال صغير ، عدم اهتمام بتفاصيل الزينة يمكن فهمه تماماً لدى كل الشخصيات العظيمة ، ويمكن مع ذلك انتقاده ، لا سيما ان المسبقات المتعلقة بمباهج الفن ليست مقبولة لديهم . لو كانت الصرامة التي يظهرها بعض الناس تجاه براعة الحلاق تنطبق على العناية بالأسنان ، فأي فضيحة ! باختصار ، ليس لنا إلا العمر الذي تعطينا إياه روحنا ، قلبنا . ويحصل ان يكون الشعر

الرمادي تناقضا اكثر واقعية من ملطف يتم احتقاره . هكذا يحق لمن هو في مثل حالتك ايها السيد ان يستعيد لون شعره الطبيعي . هل تسمح أن أعمل على إعادته إليك ؟

ـ كيف ذلك ؟ سأل آشنباخ .

ـ عندئذ ! غسل الحلاق الفصيح شعر زبونه بنوعين من الماء ، واحد فاتح والآخر قاتم ، فعاد أسود كما يوم كان في سن العشرين . ثم موجه بنعومة بواسطة المجعدة ، رجع الى الوراء ، تأمل صنيعه وقال :

ـ لم يعد من حاجة إلا لإنعاش الوجه قليلاً .

وكرجل لا يعرف ان ينتهي ، ولا يرضيه شيء كلياً ، راح ينتقل من معالجة الى اخرى ، بمظهر أكثر فأكثر انهماكاً . كان آشنباخ المتمدد باسترخاء ، العاجز عن المقاومة والمستعيد أمله إزاء المشهد ، ينظر في المرآة الى حاجبيه يرتسمان في المرآة ، يتقوسان بانسجام ، والى عينيه تتسعان كلوزتين وتلمعان ببريق أشد بفضل دائرة من الكحل تحت الجفن . رأى حيث كان جلده من قبل رخواً ، أصفر وشبيهاً بالرّقّ ، لوناً أرجوانياً

خفيفاً يظهر . واستدارت شفتاه اللتان كانتا قبل قليل منزوفتين ، واتخذتا لون توت العلّيق . اختفت تجعدات الخدين والفم وتغضنات الصدغين تحت المرهم وماء الشباب . . . كان قلب آشنباخ يخفق بشدة وهو يكتشف في المرآة مراهقاً في زهوته . أعلن المجمل أخيراً عن رضاه وشكر متزلفاً ، على طريقة الذين من نوعه ، ذلك الذي قدم له خدماته . « لمسات بسيطة ـ قال وهو ينجز عمله ـ يمكن لسيدي ان يعشق الآن دون وجل » . مضى آشنباخ مفتوناً ، طائراً على أجنحة حلمه ، مضطرباً وخائفاً . كان يضع ربطة عنق حمراء ، يزين قبعةَ القش العريضة الحروف التي يعتمرها شريط ملون .

شرعت ريح فاترة تعصف . لم يكن يتساقط إلا امطار نادرة ودقيقة ، إلا ان الجو كان رطباً ، ثقيلاً ، فاسداً ومعبأ بالأبخرة العفنة . إمتلأت أذنا آشنباخ بالطنين والخفقان والصفير . كان يعتقد ، وهو محموم تحت خضابه ، أنه يسمع حوله مرور أرواح شريرة ترتع في الفضاء ، وعصافير البحر الجنائزية التي شبعت من لحم المشانق الذي مزقته ، نبشته ووسخته . ذلك أن الجو كان ثقيلا الى حد أن المرء يفقد كل شهية ، ولم يكن يستطيع ان يمتنع عن تخيل الأطعمة التي

تسممها جراثيم العدوى .

تغلغل آشنباخ بعد ظهر أحد الأيام خلف المراهق الجميل ، في متاهات وسط المدينة الموبوءة . لم يعد يعرف كيف يتوجه ، ذلك ان كل أزقة المتاهة وقنواتها وجسيراتها وساحاتها تتشابه ، لا بل لم يعد واثقا في أي جهَة يقوم الفندق ، فلم يشغل فكره إلا أمر واحد : ألا يغيب عن نظره الطيف الذي يتبعه بإصرار . سار طويلا متخذاً احتياطات مذلة ، لامساً الأسوار ، مختفياً خلف المارة ، قبل ان ينتبه إلى التعب ، إلى الانهاك الذي أنزله شغفه وتوتر لا ينقطع بجسده روحه . كان تادزيو يسير خلف أقاربه . يترك مربيته والراهبات الصغيرات شقيقاته يتقدمنه عادة في الممرات المزدحمة . يسير متسكعاً وراءهن ، ويدير رأسه من حين لآخر للتأكد بنظرة سريعة من فوق الكتف ، بنظرة من عينيه اللتين بلون الفجر ، أن عاشقه يتبعه . كان يراه دون ان يخونه . أما هذا فيغل خلف أمله الذي في غير محله ، تسكره تلك الملاحظة ، تجره تانك العينان ويقوده هواه . انتهى به المطاف الى ان يجد نفسه منهوباً . لقد اجتاز البولونيون جسراً مقوساً فأخفاهم ارتفاع عقده عن عيني

متتبعهم ، وعندما اجتازه بدوره كانوا قد غابوا عن نظره . فتش الأفق في ثلاثة اتجاهات ، أمامه مباشرة ومن الجانبين ، على طول الرصيف الضيق والقذر ، لكن دون جدوى . أخيراً ، أجبره تهيج الأعصاب والتعب المنهك على وقف تفتيشاته .

كان رأسه يحترق ، والعرق يدبق على جلده ، ترتجف رقبته ويعذبه عطش لا يحتمل . تطلع باحثاً عن اي شيء يرطب حلقه فوراً . إشترى من حانوت صغير بعض ثمار الفريز ، بضاعة ناضجة جداً ورخوة . أكل منها وهو يواصل طريقه . انفتحت أمامه ساحة صغيرة مقفرة يظن المرء أن عصا ساحر قد استحضرتها . تعرف عليها . هنالك خطط للفرار قبل أسابيع مشروعه الفاشل . إسترخى على درجات الخزان وسط الساحة مسنداً رأسه الى حجر البئر . ألصمت عميق ، والعشب ينمو بين البلاطات ، فيما حتات الصخور ينتشر في المحيط . بين المنازل المتفاوتة والخربة التي تحيط بالساحة ، كان ثمة واحد يشبه القصر ، له نوافذ مقوسة يقطن خلفها الفراغ وشرفات صغيرة تزينها الاسود . كان هنالك صيدلية في الطابق الأرضي لمنزل آخر . تأتي هبات هواء ساخن أحياناً برائحة فينول .

كان جالساً إذن هناك ، المعلم ، الفنان الذي تعاظم مقامه ، مؤلف البائس الذي جحد الحياة البوهيمية وكدر القيعان ، في شكل ذي نقاوة مثالية ، الذي فضح كل تعاطف مع الهاويات واستهجن ما يستوجب الاستهجان . هو الذي صعد عالياً جداً ، هو الذي اعتاد على اعتبار نفسه مربوطاً بأهداب الثقة التي يوحيها لجمهوره ، بعد ان تخلص من معرفته وتحرر من السخرية ـ غوستاف آشنباخ الذي كان مجده رسمياً ، الذي رُفع إلى مصاف النبلاء ، والذي فُرض أسلوبه مثالاً لتلامذة المدارس ، كان جالساً هناك مغمض الجفنين . كان يسرّب فقط بين الحين والآخر نظرة منحرفة ، ساخرة ومذهولة ، ثم سرعان ما ينغلق جفناه وشفتاه الرخوتان المرسومتان بالأحمر ، تصوغان كلمات مفصولة عن الحديث الذي كان دماغه الخدر يؤلفه وفقاً لمنطق الحلم الغريب .

« ذلك أن الجمال ، لاحظ جيداً يا فيدروس ، أن الجمال وحده إلهي ومرئي في آن معاً ، وهكذا فبه نتوجه نحو المحسوس . به ينخرط الفنان ، يا فيدروس الصغير ، في دروب الروح . لكن هل تعتقد إذن يا صديقي أن هذا سيبلغ

الحكمة يوماً ورجولة حقيقية تتجه نحو الروح عن طريق الحواس ؟ أو هل تعتقد (والأمر لك) ان تلك الطريق ملأى بمخاطر محببة ، أنها حقاً طريق متعرجة وجانبية وأنها تؤدي بالضرورة إلى الخطأ ؟ ذلك انه سنبغي ان تعرف أننا ، نحن الشعراء ، لا يمكننا ان نسلك طريق الجمال دون ان ينضم إلينا إيروس ويأخذ دفة القيادة . مع أنه يمكننا ان نكون أبطالاً على طريقتنا ، ومحاربين منضبطين ، فنحن كالنساء ، لأن الشغف هو بالنسبة إلينا قدوة ، وينبغي ان يبقى توقنا محبة . . . تلك هي لذتنا وذلك هو خجلنا . هل ترى الآن أنه لا يمكننا ، بما أننا شعراء ، أن نكون عقلاء أو أن نكون أعزة ؟ أنه ينبغي أن نضل بالضرورة ، أن ننحل بالضرورة وأن نبقى مغامري عاطفة ؟ إن التحكم بأسلوبنا هو كذب وخداع . إن مجدنا ، التشريفات التي تقدم لنا ، هي هرجة . إن ثقة الجمهور بنا مضحكة إلى أقصى الحدود . إن تثقيف الشعب والشبيبة بالفن مشروع جريء ينبغي منعه . لأنه أي تثقيف يلائم ذلك الذي تميل طبيعته الى الهاوية ؟ إننا نجحد الهاوية تلقائيا لنعز أنفسنا . لكن اينما استدرنا فهي تجذبنا إليها . هكذا فإننا نستحلف المعرفة الهدامة ، ذلك ان ان المعرفة يا فيدروس ليست عزيزة

ولا صارمة . إنها تعرف ، تفهم وتسامح ـ لا قساوة لهـا ولا شكل . إنها تتعاطف مع الهاوية ، هي الهاوية . نحن ننبذها إذن حتماً ، ومذ ذاك يتجه جهدنا نحو الجمال وحده ، أي نحو البسيط ، نحو العظيم ، نحو الصرامـة والعفـوية المستعادتـين والأسلـوب . إلا ان الأسلـوب والعفـوية يا فيدروس يجـران النشوة والشهوة ، يخاطران بسوق من يشعـر شعـورا نبيلاً إلى تدنيسات مرعبة للقلـب مع أن تذوقـه لجمال صارم يعلن عن سفالتها . . . إن الشكل والأسلوب يقودان الى الهـاوية . هما أيضا ـ الى الهاوية . إنهما يقودانا أيضـا إليهـا ، أقـول ، لأن الشاعــر غــير قادر على سمــو دائــم ، ليس قادراً إلا على اندفاقات . والآن ، يا فيدروس ، إبق أنت ، أما أنا فأرحل . وفقط حين لا تعود تراني ، إرحل انت أيضاً . »

بعد ذلك بأيام ، غادر غوستاف آشنباخ الذي كان يشعر بالألم الفندق في ساعة صباحية مبكرة أكثر من العـادة . كان عليه ان يتغلب على بعض نوبات الدوار التي لم تكن عائـدة لأسباب بدنية إلا نصفياً ، وكانت ترافقها نوبة قلق ، الشعور بأنه لا مخرج ولا رجـاء ، دون ان يفسر لنفسـه إذا كان ذلك الشعور عائداً للعالم الخارجي أو لشخصه هو بالذات . لاحظ

في الردهة كدسة أمتعة معدة للرحيل ، وسأل البواب عمن يكون الراحل . أعطاه هذا ، بمثابة جواب ، اسم العائلة البولونية ، مرفقاً إياه بلقب النبالة ، وهو ما كان توقعه سراً . أصغى إلى ذلك دون ان تتحرك ملامحه الشاحبة ، الا حركة خفيفة من الذقن ترافق عادة خبراً لا يهم السامع الا عرضاً ، ثم أضاف : « متى ؟ » . أجابه البواب : « بعد الغداء » . وافق بحركة من الرأس ومضى إلى البحر .

كان الشاطىء غير مضياف . تركض تغضنات خفيفة على الامتداد الواسع للمياه الواطئة الذي يفصل أول جرف رملي عن الشاطىء . بدا نَفَس الخريف ، نَفَس الأشياء التي توقفت عن الحياة ، يمر على مكان المتعة ذلك الذي كانت تحييه في الماضي ألوان فاقعة والذي أصبح الآن شبه مقفر وغير متعهد بالعناية . كان جهاز تصوير غير معروف من هو صاحبه ، يستقر على حافة الماء فيما يصفق الحجاب الأسود الموضوع فوقه في الريح التي أصبحت باردة .

كان تادزيو ، وثلاثة أو أربعة من أصحابه الذين آثروا البقاء معه ، يلهو الى يمين كابينة عائلته ، وقد تابعه مرة أخرى

بالنظر آشنباخ المتمدد على كرسيه ، مغطياً ركبتيه ، عند منتصف الطريق بين البحر وصف الكابينات .

إن اللعب الذي لم يكن يراقبه أحد ، لأن النسوة كن منهمكات دون شك باستعدادات السفر ، بدا أنه لم يعد يسير وفقا للقاعدة ، وانحط . فالولد السمين القصير ذو الشعر الأسود المدهون الذي يدعونه جاشو ، والذي غضب لأنه تلقى حفنة رمل في وجهه وعينيه ، أجبر تادزيو على العراك معه ، وسرعان ما سقط المراهق الناحل . لكن كما لو أن تبعية الأدنى تحولت لدى جاشو إلى شراسة وقساوة في ساعة الفراق ، كما لو أراد الانتقام من عبودية طويلة ، فبعد ان انتصر لم يترك الخصم المهزوم ، بل ضغط على العكس بركبتيه على ظهره وأبقى وجهه في الرمل طويلا ، الى حد ان تادزيو الذي انهكه العراك بدا على وشك الاختناق . كانت محاولاته للتخلص من خصمه الذي يضيّق عليه متشنجة . كانت تتوقف أحياناً كلياً ، ولم تكن لتعاود إلا بانتفاضات . خرج آشنباخ عن طوره ، وكان يود ان يقفز لنجدته حين ترك الشرس أخيراً ضحيته . كان تادزيو شاحباً جداً ، وقد جلس مستنداً الى احد مرفقيه . بقي عدة

دقائق دون حراك ، مبعثر الشعر ، قاتم النظرة ، ثم انتصب كلياً وابتعد ببطء . ناداه احدهم ، والصوت الذي كان في البدء مرحاً صار قلقاً ومتضرعاً . لم يكن يسمع . أما الآخر ، الفتى ذو الشعر الأسود ، فيبدو أنه ندم على فعلته ، فأمسك به وحاول مصالحته . إلا أن تادزيو أبعده بحركة من كتفه ونزل منحرفاً نحو البحر . كان حافياً ويرتدي لباسه المضلع المزين بعقدة حمراء .

توقف عند حافة الموج مطأطىء الرأس راسماً بطرف قدمه صوراً على الرمل الرطب ، ثم دخل المستنقع البحري الذي لم يكن يصل في أعمق مكان منه الى ركبته . إجتازه وبلغ الجرف الرملي وهو يتقدم بلا مبالاة . توقف هناك لحظة ووجهه نحو عرض البحر ، ثم شرع يجتاز متمهلاً اللسان الرملي الطويل والضيق الذي يكشفه البحر . تفصله عن الأرض الصلبة مساحة من المياه ، تفصله عن اصحابه نزوة كبرياء ، كان يمضي ، رؤيا دون رباطات ومنفصلة كلياً عن الباقي ، شعره للريح ، هناك في البحر والريح ، منتصباً على اللانهاية الضبابية . مرة أخرى انفصلت الصورة الجامدة ، وفجأة كما

لدى ذكرى ، اندفاعةٍ ، أدار نصفه الأعلى ، منحنياً بلطافة بالنسبة لوضعه الأول ، واضعاً يده على وركه ، ونظر الى الشاطىء من فوق كتفه . كان آشنباخ جالساً هناك ، كما في اليوم الذي التقى فيه نظره للمرة الأولى تينك العينين اللتين بلون الفجر . إستدار رأسه ببطء ، منزلقاً على مسند الكرسي ، لمرافقة حركة ذلك الذي كان يتقدم هناك . كان ينتصب الآن كما للمضي الى أمام نظره ، ثم تهالك على الصدر ، والعينان مستديرتان لتريا أيضاً ، فيما يتخذ الوجه التعبير المتراخي والورع للنائم الذي يسقط في نوم عميق . كان يبدو لآشنباخ أن الفتى الشاحب والجدير بالحب يبتسم له هناك ، مشيراً الى عرض البحر . أنه ينتزع يده عن وركه ، يمد إصبعه نحو البعيد ، وينطلق متقدماً غيره كظل في الفراغ الضخم والمفعم وعوداً .ودَّ كما مراراً عديدة من قبل ان ينهض للحاق به .

إنصرمت دقائق قبل ان يهرع بعضهم الى نجدة الشاعر الذي تهالك جسده على حافة كرسيه . أصعدوه الى غرفته .

وفي اليوم ذاته انتشر خبر وفاته في انحاء العالم الذي تلقاه بتأثر ديني .

رسم الغلاف حلمي التوني

الموت في البندقية

إن الانبهار المميت الذي يمكن أن يمارسه الجمال الجسدي هو الموضوع الذي يعالجه مان في هذه الاقصوصة ... الجمال هنا يقود إلى الاضطراب الرهيب في الروح ، إلى فقدان التوازن ، إلى الموت ... إلا ان الفنان المنتهي هذه النهاية المأساوية بعد انفلات طاقاته المكبوتة وقوى نفسه الجامحة ليس كائناً فرداً . إنه المانيا التي ستنفلت فيها قوى مجنونة على المستوى الجماعي فيما بعد ، فيما تعيش البورجوازية مرحلة انحطاطها ، على قيد شبر من الهاوية ...

الثمن ٥ ل . ل
او ما يعادلها

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية صمدي وصالحة - ص.ب: ١١/٥٤٦٠
بناية برج شهاب - تلة الخياط - ص.ب : ١٩٥١١٩
برقياً : موكيالي - بيروت